الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1يَا رَبُّ، بِقُوَّتِكَ يَفْرَحُ الْمَلِكُ، وَبِخَلاَصِكَ كَيْفَ لاَ يَبْتَهِجُ جِدًّا! 2شَهْوَةَ قَلْبِهِ أَعْطَيْتَهُ، وَمُلْتَمَسَ شَفَتَيْهِ لَمْ تَمْنَعْهُ. سِلاَهْ. 3لأَنَّكَ تَتَقَدَّمُهُ بِبَرَكَاتِ خَيْرٍ. وَضَعْتَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجاً مِنْ إِبْرِيزٍ. 4حَيَاةً سَأَلَكَ فَأَعْطَيْتَهُ. طُولَ الأَيَّامِ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. 5عَظِيمٌ مَجْدُهُ بِخَلاَصِكَ. جَلاَلاً وَبَهَاءً تَضَعُ عَلَيْهِ. 6لأَنَّكَ جَعَلْتَهُ بَرَكَاتٍ إِلَى الأَبَدِ. تُفَرِّحُهُ ابْتِهَاجاً أَمَامَكَ. 7لأَنَّ الْمَلِكَ يَتَوَكَّلُ عَلَى الرَّبِّ، وَبِنِعْمَةِ الْعَلِيِّ لاَ يَتَزَعْزَعُ.

8تُصِيبُ يَدُكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ. يَمِينُكَ تُصِيبُ كُلَّ مُبْغِضِيكَ. 9تَجْعَلُهُمْ مِثْلَ تَنُّورِ نَارٍ فِي زَمَانِ حُضُورِكَ. الرَّبُّ بِسَخَطِهِ يَبْتَلِعُهُمْ وَتَأْكُلُهُمُ النَّارُ. 10تُبِيدُ ثَمَرَهُمْ مِنَ الأَرْضِ وَذُرِّيَّتَهُمْ مِنْ بَيْنِ بَنِي آدَمَ. 11لأَنَّهُمْ نَصَبُوا عَلَيْكَ شَرّاً. تَفَكَّرُوا بِمَكِيدَةٍ. لَمْ يَسْتَطِيعُوهَا. 12لأَنَّكَ تَجْعَلُهُمْ يَتَوَلَّوْنَ. تُفَوِّقُ السِّهَامَ عَلَى أَوْتَارِكَ تِلْقَاءَ وُجُوهِهِمْ. 13ارْتَفِعْ يَا رَبُّ بِقُوَّتِكَ. نُرَنِّمُ وَنُنَغِّمُ بِجَبَرُوتِكَ.

شكر على النصر

في مزمور 20 سمعنا المؤمنين يصلّون من أجل القائد لينصره الرب. وفي هذا المزمور نسمع تأكيداً أن الله سمع واستجاب. حقاً «اسألوا تعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يُفتح لكم» (مت 7:7). في مزمور 20 سألوا، وفي مزمور 21 يشكرون الله الذي استجاب لهم وأعطاهم، ويعلنون ثقتهم أنه سيعطيهم، فهو إذاً مزمور الكنيسة المجاهدة وقد سمع الله صلاتها من أجل راعيها، كما أنه يمكن أن يكون مزموراً نبوياً ترتله الكنيسة المنتصرة وهي تعلن نهاية الجهاد المكلل بالغلبة. وهو مزمور العائلة المسيحية تسمع رب الأسرة يرتل ترتيل الشكر، وهو مزمور العمّال يسمعون صاحب العمل يشكر الله الذي استجاب دعاء رجاله لأجل مؤسستهم.

هذا المزمور نبوة عن المسيح ابن داود، وقد أوضح الترجوم اليهودي (وهو ترجمات تفسيرية قديمة لأجزاء من العهد القديم باللغة الأرامية) آيتي 1، 7 من مزمورنا بالقول «الملك المسيا». ويقول الرسول بولس: «لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه» (1كو 15: 25).

في هذا المزمور نجد:

أولاً – الفرح بالانتصار (آيات 1–7)

ثانياً – هزيمة العدو الدائمة (آيات 8–12)

ثالثاً – الاحتفال بالنصر الدائم (آية 13)

أولاً - الفرح بالانتصار

(آيات 1-7)

1 - جاء الفرح نتيجة معجزة: «يا رب، بقوتك يفرح الملك، وبخلاصك كيف لا يبتهج جداً؟» (آية 1). لم ينتصر القائد الذي صلوا لأجله بقوةٍ من عنده «بالمركبات والخيل» (مز 20: 7) بل «بقوتك» و«بخلاصك» يا رب. إن افتخارنا البشري يرخي أوتار أعوادنا، فتصدر عنها الألحان الحزينة. ولكن قوته وخلاصه يشدان أوتار أعوادنا فنغني بفرح ترانيم الخلاص بمعجزة النصر، لأنه «لا بالقوة ولا بالقدرة، بل بروحي قال رب الجنود» (زك 4: 6) «لأن به تفرح قلوبنا، لأننا على اسمه القدوس اتكلنا» (مز 33: 21) «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لتحل عليّ قوة المسيح» (2كو 12: 9).

2 – جاء الفرح نتيجة الصلاة المستجابة: «شهوة قلبه أعطيته، وملتمس شفتيه لم تمنعه» (آية 2). «أعطيته – لم تمنعه». وكلمة «شهوة» تعني الرغبة العميقة المتأصّلة الغريزية، لا الرغبة الطارئة. وهي في الأصل العبري تعني الميراث، فهي ليست مجرد أمل، لكنها أمر أكيد كالميراث. وليست استجابة الصلاة مجرد أملٍ عابر شُدّت إليه عينا المصلي، بل هي حقيقة صادقة لا شك فيها، كما قال المسيح: «شهوةً اشتهيتُ أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم» (لو 22: 15). فأكله وكما قال الحكيم: «شهوة الصديقين تُمنح» (أم 10: 24). وقد حقق الله الشهوة المقدسة واستجاب الالتماس.

وتجئ كلمة «سلاه» في نهاية الآية الثانية، كأنها تريد أن توقفنا لحظة عن الترتيل لنتأمل في استجابة الصلاة، لنتشجع فنصلي أكثر (يو 16: 24).

3 - جاء الفرح نتيجة لعناية الله: «لأنك تتقدمه ببركات خير. وضعتَ على رأسه تاجاً من إبريز» (آية 3). كأن الله ذهب ليلاقي الملك ليباركه بكل خيرات النجاح، فتحقق معه القول: «بركة خير تأتي عليهم» (أم 24: 25). يحصل بعض الناس على بركات ولكنهم يسيئون استعمالها، لكن من عند الرب تخرج بركات الخير للذين يسلكون في الخير. العادة في فلسطين أن يتقدم الراعي خرافه التي تتبعه، وقد قال المسيح إن خرافه تسمع صوته، وأنه يعرفها فتتبعه (يو 10: 3–5). فالرب يحمل بركات الخير للمؤمنين ويتقدمهم بها، وهم يتبعونه في فرح بعنايته الفائقة.

ثم وضع الرب على رأس الملك تاجاً من ذهب اعترافاً بتجديد مُلكه على شعبه الذي يصلي لأجله. ويضع الرب على رؤوس المؤمنين الأمناء الذين يخدمونه أكاليل البر (2تي 4: 8) وأكاليل الحياة (يع 1: 12 ورؤ 2: 10) وأكاليل المجد (1بط 5: 4). وهي أكاليل من ذهب (رؤ 4:4). فهل يستحق أحدٌ من المؤمنين هذا كله؟ لقد حمل المسيح على رأسه إكليل الشوك ليعطينا إكليل الذهب، واحتمل العار والهوان ليعطينا المجد والشرف. فلنشكر إلهنا الصالح بكل الفرح!

4 - جاء الفرح نتيجة منح الملك الحياة الأبدية: «حياةً سألك فأعطيته. طول الأيام إلى الدهر والأبد» (آية 4). وهذا يعني أن الله أطال سني حياة الملك في الأيام، وعمَّق نوعيتها، إذ منحه الحياة الناجحة المثمرة. وأكثر من هذا أنه منحه «طول الأيام إلى الأبد». ويمنحنا الله الحياة الأبدية، التي تستمر «إلى الدهر والأبد» عندما يدخل المسيح قلوبنا، فتصبح حياته حياتنا. «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو 17: 3 – قارن يو 3: 14–16). وقتها نتمتع هنا ببدء الحياة الأبدية التي لا تنتهي أبداً، لأن الأبدي الذي حلّ فينا يجعل الفاني أبدياً، ويمنحه صفة الدوام!

نال الملك حزقيا خمس عشرة سنة زيادة على سني حياته (إش 38: 5) لكنه مات. ونال لعازر سنوات لا ندري عددها بعد أن أقامه المسيح من القبر (يو 11: 43)، لكنه عاد ومات. واضحٌ أن حياة الجسد تفنى، لكن هناك الحياة الأبدية التي لا نهاية لها، والتي يجب أن تتأكد أنها نصيبك، عندما يسكن المسيح قلبك.

5 - جاء الفرح نتيجة حصول الملك على الجلال والبهاء: «عظيم مجده بخلاصك. جلالاً وبهاءً تضع عليه» (آية 5). والمجد والجلال والبهاء صفات الله سبحانه، وقد أضفى منها على الملك المنتصر ما رفع رأسه. ونحن اليوم ندرك أن مجدنا وجلالنا وبهاءنا هو في ثمر الروح القدس، من محبة وفرح وسلام، وطول أناة ولطف وصلاح، وإيمان ووداعة وتعفف. وعندما يدخل المسيح قلوبنا يعطينا حياةً أبدية، فيبدأ الروح القدس يثمر فينا، وهذا هو البهاء. فتظهر فينا «المحبة» فيعرف الجميع أننا تلاميذ المسيح (يو 13: 35). ويظهر فينا فرح الرب ويكون قوتنا (نح 8: 10). ويظهر فينا السلام حتى لو فقدنا أعز ما لدينا (2مل 4: 26).. وهكذا.

أيها المؤمن، يا من دخل المسيح قلبك، إن لم تكن متمتعاً بثمر الروح أرجوك أن تراجع حياتك الروحية، لأن هذه البركات جميعاً هي نصيبك ومن حقك، لأن المجد والجلال والبهاء هو نصيب كل من كُتب اسمه في سفر الحياة (رؤ 3: 5).

6 - جاء الفرح نتيجة لأن الملك صار بركة لشعبه: «لأنك جعلته بركات إلى الأبد» (آية 6أ). قال الرب لإبراهيم: «اذهب من أرضك.. فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظّم اسمك، وتكون بركة» (تك 12: 1، 2). وكل من يتبع الرب بثقة ومحبة وطاعة يمنحه الرب بركات، كما يجعله مصدر بركات للمحيطين به. قد يشجّع واعظٌ مستمعيه المتألمين، لكن الحياة تعود فتصدمهم، فيعودون إلى متاعبهم. أما البركة الوحيدة التي تستمر إلى الأبد فهي بركة الخلاص بربنا يسوع المسيح: الخلاص من خطايا الماضي بالغفران، والخلاص من خطايا الحاضر بالتقديس، وتكميل الخلاص في المستقبل بالدخول إلى أمجاد السماء، وهذا هو كمال الفرح والابتهاج أمام الرب.

و«تفرحه ابتهاجاً أمامك» (آية 6ب). وهذا تعبيرٌ مأخوذ من إنعاش الجِمال بالغناء (ويُسمَّى في العربية: حُداء)، فتسير في الصحاري القاحلة تحمل أثقالها بيُسرٍ. ويُبهج الرب الملك ليتحمّل مسؤوليات الدولة إذ يُسمعه ترتيل وترانيم وصلوات شعبه من أجله.

7 - جاء هذا الفرح ليستمر: «لأن الملك يتوكل على الرب، وبنعمة العلي لا يتزعزع». (آية 7). الاتكال هو الاعتماد على صدق خبرٍ سمعناه، والتصرف بمقتضى هذا الاعتماد وفي نوره. لقد عرف الملك أن الله سامع الصلاة، واختبر الاستجابة العظيمة، فتعلّم أن يتكل عليه، فلم يعد يتقلقل أو يشكّ. قال الرسول يعقوب: «رجلٌ ذو رأيين هو متقلقلٌ في جميع طرقه» (يع 1: 8). أما المتوكل على الرب وعلى نعمته فإنه ثابت. يعطي العالم فرحاً لا يستمر، وقد تنتهي حلاوته بالمرارة وضحكه بالبكاء. لكن عندما يعطي الرب الفرح الحقيقي فهذا يستمر إلى الأبد، لأن صاحبه يتوكل على الرب.

ثانياً - هزيمة العدو الدائمة

(آيات 8-12)

نصر الله شعبه على العدو الذي جاء غازياً، فانهزم، كما لا بد أن ينهزم كل أعداء الرب، وعلى رأسهم «إبليس خصمكم» الذي يبدو «كأسدٍ زائر» (1بط 5: 8) مع أنه في الواقع عدو مهزوم قال عنه المسيح: «رأيتُ الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (لو 10: 18). أما الأسد الذي خرج غالباً ولكي يغلب (رؤ 5:5 و6: 2) فهو فقط الذي رفعه الله

وأعطاه اسماً فوق كل اسم (في 2: 9)، وأبواب الجحيم لن تقوى على مملكته، وكل آلة صُوِّرت ضدها لا تنجح (إش 54: 17).

الله دوماً هو المنتصر، ولكنه إله ديمقراطي، يسمح بوجود معارضين له، فيترك للشيطان حرية العمل، وهو يعلم أن النصرة الأخيرة النهائية هي دائماً للحق. فإن كان العدو يمرح، ويصرخ بأعلى صوت، ويظن أنه يشوشر على الحق بالباطل، فإن جماعة المؤمنين الهادئة التي تصلي تدرك أن الصوت المنخفض الخفيف (1مل 19: 12) آتٍ لا شك فيه، ليشجع ويبني ويبارك، ويهزم العدو.

وفي هذه الآيات نجد الحقائق الخمس التالية:

1 - ستستمر هزيمة الأعداء لأنهم مكشوفون: «تصيب يدُك جميع أعدائك. يمينك تصيب كلّ مبغضيك» (آية 8). لا شيء يخفى عن الرب «وليست خليقة غير ظاهرة قدامه، بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا» (عب 4: 13). إن ظن العدو أنه يحصّن نفسه ليخبئ مؤامراته عن الرب فهو جاهل واهم، وهزيمته لا شك فيها!

2 - ستستمر هزيمة الأعداء لأنهم لا بد مهزومون: «تجعلهم مثل تنّور نار في زمان حضورك. الرب بسخطه يبتلعهم، وتأكلهم النار» (آية 9). يهلك الرب الأعداء كوقود في تنور «فهوذا يأتي اليوم المتّقد كالتنور، وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشاً، ويحرقهم اليوم الآتي، يقول رب الجنود، فلا يُبقى لهم أصلاً ولا فرعاً» (ملا 4: 1).

3 - ستستمر هزيمة الأعداء لأنهم لا يُنجِبون مثلهم: «تبيد ثمرهم من الأرض، وذريتهم من بين بني آدم» (آية 10). ثمرة البطن هي النسل (تك 30: 2 ومز 127: 3). ولن ينجب الأشرار أشراراً مثلهم، إما لأن الله سيهلك نسلهم، أو لأن النسل لن يحبوا أن يسيروا في طرق آبائهم الأشرار. والله قادر على الأمرين! لئن ظن الأعداء أن عددهم كبير، فليست النصرة في كثرة العدد، لأن الرب سيبيد ذريتهم، ولن يستطيعوا أن يدربّوا أو يجنّدوا أشراراً آخرين على شاكلتهم.

4 - ستستمر هزيمة الأعداء لأنهم دوماً عاجزون: «لأنهم نصبوا عليك شراً. تفكروا بمكيدة. لم يستطيعوها» (آية 11). «نصبوا» بمعنى أنهم تعبوا ورتّبوا ودبّروا، ولكنهم لن يستطيعوا. لم يكن هيرودس الكبير يظن أن الطفل يسوع سينجو من مكيدته وهو يقتل كل أطفال بيت لحم. ولكن مكيدته لم تفلح. ولم يكن هيرودس الآخر يظن أن أربعة أرابع (16 جندياً) من العسكر سيعجزون عن حراسة بطرس في السجن، ولم يكن يظن أن أبواب السجن ستنفتح. لكن الله في محبته وقوته خلص بطرس من الشر الذي نصبوه عليه.

5 - ستستمر هزيمة الأعداء لأنهم دوماً يهربون: «لأنك تجعلهم يتولّون. تُفوّق السهام على أوتارك تلقاء وجوههم» (آية 12). «يتولون» بمعنى أن هجوم الله عليهم يجعلهم يعطون القفا ويهربون. فإذا استداروا ليهاجموا شعب الرب من جديد، فالسهم جاهز ليصيبهم ويردّهم على أعقابهم. وقد تبدو هذه الكلمات مُغرقة في التفاؤل، ولكن منذ متى لا يجب أن يكون أولاد الله متفائلين؟ إنهم متفائلون بطبعهم لأنهم يتبعون المخلّص المنتصر الذي ينصر الذين هم له، فيعظم انتصارهم بمن أحبهم (رو 8: 37).

ثالثاً - الاحتفال بالنصر الدائم

(آية 13)

هذه الآية هي كلمات الترنيمة الأخيرة للشعب كله، وقد امتلأت قلوبهم بالثقة أن الرب يُظهر قوته فيقولون: «ارتفع يـــا رب بقوتك. نرنم وننغّم بجبروتك» (آية 13). يرتفع الرب بقوة نفسه، فلن يقدر المؤمنون أن يرفعوه! فمن نحن لنمجد الله؟ إن الله يمجد ذاته ويمجدنا معه. لكننا يجب أن نسير سيراً يمجد الله وأن نسلك سلوكاً يرضيه.

في حفل اليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا، كتب الشاعر رُدريارد كبلينج يقول: «لئلا ننسى في حفل اليوبيـــل أن العـــزة والقدرة هما لله وحده، فليصمت البشر وليتذللوا أمام العلي». فدعونا الآن نصمت ونسكّن قلوبنا أمام الله، ليحقق لنا وعـــود هذا المزمور، مزمور الانتصار.

الْمَزْمُورُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ عَلَى «أَيِّلَةِ الصُّبْحِ». مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1إِلَهِي! إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي بَعِيداً عَنْ خَلاَصِي، عَنْ كَلاَمِ زَفِيرِي؟ 2إِلَهِي فِي النَّهَارِ أَدْعُو فَلاَ تَسْتَجِيبُ، فِي اللَّيْلِ أَدْعُو فَلاَ هُدُوءَ لِي. 3وَأَنْتَ الْقُدُّوسُ الْجَالِسُ بَيْنَ تَسْبِيحَاتِ إِسْرَائِيلَ. 4عَلَيْكَ اتَّكَلَ آبَاؤُنَا، اتَّكَلُوا فَنَجَّيْتَهُمْ. 5إِلَيْكَ صَرَخُوا فَنَجُوا. عَلَيْكَ اتَّكَلُوا فَلَمْ يَخْزُوا. 6أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لاَ إِنْسَانٌ. عَارٌ عِنْدَ الْبَشَرِ وَمُحْتَقَرُ الشَّعْبِ. 7كُلُّ الَّذِينَ يَرُونَنِي يَسْتَهْزِئُونَ بِي. يَفْغَرُونَ الشِّفَاهَ وَيُنْغِضُونَ الرَّأْسَ قَائِلِينَ: 8«اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ فَلْيُنَجِّهِ. لِيُنْقِذْهُ لأَنَّهُ سُرَّ بِهِ». 9لأَنَّكَ أَنْتَ جَذَبْتَنِي مِنَ الْبَطْنِ. جَعَلْتَنِي مُطْمَئِنّاً عَلَى ثَدْيَيْ أُمِّي. 10عَلَيْكَ أُلْقِيتُ مِنَ الرَّحِمِ. مِنْ بَطْنِ أُمِّي أَنْتَ إِلَهِي. 11لاَ تَتَبَاعَدْ عَنِّي لأَنَّ الضِّيقَ قَرِيبٌ، لأَنَّهُ لاَ مُعِينَ.

12أَحَاطَتْ بِي ثِيرَانٌ كَثِيرَةٌ. أَقْوِيَاءُ بَاشَانَ اكْتَنَفَتْنِي. 13فَغَرُوا عَلَيَّ أَفْوَاهَهُمْ كَأَسَدٍ مُفْتَرِسٍ مُزَمْجِرٍ. 14كَالْمَاءِ انْسَكَبْتُ. انْفَصَلَتْ كُلُّ عِظَامِي. صَارَ قَلْبِي كَالشَّمْعِ، قَدْ ذَابَ فِي وَسَطِ أَمْعَائِي. 15يَبِسَتْ مِثْلَ شَقْفَةٍ قُوَّتِي، وَلَصِقَ لِسَانِي بِحَنَكِي، وَإِلَى تُرَابِ الْمَوْتِ تَضَعُنِي. 16لأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلاَبٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ الأَشْرَارِ اكْتَنَفَتْنِي. ثَقَبُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ. 17أُحْصِي كُلَّ عِظَامِي وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَيَتَفَرَّسُونَ فِيَّ. 18يَقْسِمُونَ ثِيَابِي بَيْنَهُمْ، وَعَلَى لِبَاسِي يَقْتَرِعُونَ.

19أَمَّا أَنْتَ يَا رَبُّ فَلاَ تَبْعُدْ. يَا قُوَّتِي، أَسْرِعْ إِلَى نُصْرَتِي. 20أَنْقِذْ مِنَ السَّيْفِ نَفْسِي، مِنْ يَدِ الْكَلْبِ وَحِيدَتِي. 21خَلِّصْنِي مِنْ فَمِ الأَسَدِ، وَمِنْ قُرُونِ بَقَرِ الْوَحْشِ اسْتَجِبْ لِي.

22أُخْبِرُ بِاسْمِكَ إِخْوَتِي. فِي وَسَطِ الْجَمَاعَةِ أُسَبِّحُكَ. 23يَا خَائِفِي الرَّبِّ، سَبِّحُوهُ. مَجِّدُوهُ يَا مَعْشَرَ ذُرِّيَّةِ يَعْقُوبَ، وَاخْشَوْهُ يَا زَرْعَ إِسْرَائِيلَ جَمِيعاً. 24لأَنَّهُ لَمْ يَحْتَقِرْ وَلَمْ يَرْذُلْ مَسْكَنَةَ الْمِسْكِينِ، وَلَمْ يَحْجُبْ وَجْهَهُ عَنْهُ، بَلْ عِنْدَ صُرَاخِهِ إِلَيْهِ اسْتَمَعَ. 25مِنْ قِبَلِكَ تَسْبِيحِي فِي الْجَمَاعَةِ الْعَظِيمَةِ. أُوفِي بِنُذُورِي قُدَّامَ خَائِفِيهِ. 26يَأْكُلُ الْوُدَعَاءُ وَيَشْبَعُونَ. يُسَبِّحُ الرَّبَّ طَالِبُوهُ. تَحْيَا قُلُوبُكُمْ إِلَى الأَبَدِ. 27تَتَذَكَّرُ وَتَرْجِعُ إِلَى الرَّبِّ كُلُّ أَقَاصِي الأَرْضِ، وَتَسْجُدُ قُدَّامَكَ كُلُّ قَبَائِلِ الأُمَمِ، 28لأَنَّ لِلرَّبِّ الْمُلْكَ وَهُوَ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى الأُمَمِ. 29أَكَلَ وَسَجَدَ كُلُّ سَمِينِي الأَرْضِ. قُدَّامَهُ يَجْثُو كُلُّ مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى التُّرَابِ، وَمَنْ لَمْ يُحْيِ نَفْسَهُ. 30الذُّرِّيَّةُ تَتَعَبَّدُ لَهُ. يُخَبَّرُ عَنِ الرَّبِّ الْجِيلُ الآتِي. 31يَأْتُونَ وَيُخْبِرُونَ بِبِرِّهِ شَعْباً سَيُولَدُ بِأَنَّهُ قَدْ فَعَلَ.

نبوَّات عن الصليب والقيامة

كتب داود هذا المزمور قبل صلب المسيح بألف سنة، وشرح فيه بروح النبوَّة آلام الصليب وأمجاد القيامة. عنوان المزمور «لإمام المغنين على أيلة الصبح» بمعنى أن الوقت الذي يُرتل فيه هذا المزمور كان دوماً قبل شروق الشمس. وهو يصوّر لنا ألم الصليب الذي تحمّله فادينا من أجلنا إلى أن انبلج صباح القيامة بنوره العظيم. وهذا المزمور نبوَّة عن المسيح، ولا يعبر أبداً عن حالة داود، فلم يحدث أبداً لداود أنه كان:

1 - «محتقر الشعب» (آية 6): ففي أسوأ الحالات التي طارده فيها الملك شاول، كان محبوباً من كل الشعب، يغنون له: «ضرب شاول ألوفه، وداود عشرات ألوفه» (1صم 18: 7). أما المسيح فيصفه النبي إشعياء في حالة آلامه بالقول: «محتقرٌ فلم نعتدّ به» (إش 53: 3).

2 - «لأنه لا معين» (آية 11): فلم يكن داود أبداً بلا معين، لأن الرب كان عونه دائماً. أما المسيح فقال هذه الكلمات على الصليب، لأنه كان وقت الصليب يمثّل الخطاة، فحجب الله وجهه عنه.

3 - «ثقبوا يديَّ ورجليَّ» (آية 16): وهذا لم يحدث أبداً لداود، بل جرى للمسيح المصلوب.

4 - «أُحصي كل عظامي» (آية 17): ولم يكن داود أبداً في وضع المعلَّق الذي تعرى من ثيابه فظهرت عظام جسده بارزة، حتى يمكن أن يحصيها كل من يريد إحصاءها.

5 - «يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون» (آية 18): وهذا لم يحدث أبداً لداود، بل فعله العسكر مع ثياب المسيح.

إذاً المزمور نبوة توراتية من وحي الروح القدس عما سيحدث للمسيح. تقول الآية 22 منه «أُخبر باسمك إخوتي. في وسط الجماعة أُسبِّحك». وقال الرسول بولس إنها من كلمات المسيح (عب 2: 12). وتقول الآية الأولى في المزمور: «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» وهذه أول كلمات المسيح على الصليب، لأنه شعر أن الآب حجب وجهه عنه وتركه ليدفع أجرة خطايانا بديلاً عنّا لأنه ناب عن الأشرار. وبعد أن قدم التضحية والذبيحة وأوجد الكفارة والفداء والخلاص قال: «قد فعلت». (آية 31) وترجمتها في اليونانية «قد أُكمل».

وقبل الصليب بألف سنة وصف هذا المزمور بروح النبوة، وبوحي الروح القدس، أحلك ساعات حياة المسيح على أرضنا، وذكر كلماته على الصليب. وقد أشار البشيرون إلى هذا المزمور باعتباره نبوة عن الصليب (مت 27: 35-46 ويو 19: 24، 28، 30).

تحكي آيات 1-21 آلام المسيح. فعندما وُلد حاول هيرودس أن يقتله. ثم جرّبه إبليس في البرية ليُبعده عن الصليب. بعدها قاومه الرؤساء وصلبوه.. ولم تنجح مقاصدهم من صلبه، لأنه قام في اليوم الثالث من بين الأموات. لقد شُبِّه لليهود أنهم قتلوه وأنهوا رسالته، لكن آمالهم الشريرة خابت، لأن الله رفعه إليه «فتذكر وترجع إلى الرب كل أقاصي الأرض، وتسجد قدامك كل قبائل الأمم» (آية 27).

لم يكن الصليب نهاية المسيح، ولا كان الألم نهاية مزمور 22 لأن المزمور في جزئه الأخير (آيات 22-31) يهتف بانتصار المسيح. ولا يمكن أن نذكر صليب المسيح وآلامه الفدائية دون أن نذكر قيامته قيامة عزيز مقتدر، فنقول مع الرسول بولس: «أُسلم من أجل خطايانا، وأُقيم لأجل تبريرنا» (رو 4: 25).

ومن الأمور الواضحة في هذا المزمور، والتي تبرهن أنه يتحدث عن المسيح المصلوب المُقام، أمران:

1 – يخلو المزمور من أي اعتراف بالخطية. والمسيح هو الوحيد المعصوم.

2 – يخلو المزمور من لعن العدو، الأمر الذي نراه في كل المزامير التي تعالج العلاقة بالعدو. والمسيح هو الذي لم يلعن مقاوميه، بل طلب لهم الغفران وهم يصلبونه، وعلّم أتباعه أن يحبّوا أعداءهم.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – نبوّات عن آلام المسيح (آيات 1–21)

ثانياً – نبوّات عن نصرة المسيح (آيات 22–31)

أولاً ـ نبوّات عن آلام المسيح

(آيات 1-21)

1 ـ صلاة المسيح المتألم: (آيات 1–5).

في هذه الآيات نرى أمرين:

(أ) **تعبيراً عن الألم النفسي:** «إلهي! إلهي، لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي عن كلام زفيري؟ إلهي، في النهار أدعو فلا تستجيب. في الليل أدعو فلا هدوَّ لي» (آيتا 1 و2). هذه صرخة حيرة ودهشة، إذ يتصارع الإيمان والألم داخل الصارخ، فالإيمان يتمسك بالله «إلهي» ويتساءل الألم: «لماذا تركتني؟». هذه صرخة متألم، يمسك إلهه بكلتا يديه ويقول له: «إلهي إلهي». يقولها وهو في الجسد، نائباً وبديلاً عنا لأنه فادينا ووليُّ أمرنا الأقرب إلينا. كل آلام الصليب المبرحة، وسخرية الناس الرهيبة، والآلام النفسية التي تفوق كل الآلام البدنية، لم تفصله عن الله الذي يستوفي منه أجرة خطية العالم، فهو «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو 1: 29). لم يفعل المسيح ما يدعو أن يتركه الله، لكن بسبب خطايانا حجب الله وجهه عنه، كما هو مكتوب: «أما الرب فسُرَّ بأن يسحقه بالحزن» (إش 53: 10). الذي لم يعرف خطية جُعل خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه (2كو 5: 21).

جعل الألم العظيم كلام المسيح زفيراً: «لماذا تركتني بعيداً عن خلاصي عن كلام زفيري؟» وكأنه أسد يزأر من الألم! «إلهي، في النهار أدعو فلا تستجيب لي. في الليل أدعو فلا هدوَّ لي». كان واثقاً تماماً أن الله معه، ولكن ما باله لا يستجيب له ولا يمنحه الخلاص والسلام؟

(ب) **توجُّهاً للإله القدوس الأمين:** «وأنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل. عليك اتكل آباؤنا. اتكلوا فنجّيتهم. إليك صرخوا فنجوا. عليك اتكلوا فلم يخزوا» (آيات 3–5). يثق المرنم في الرب، لأنه القدوس، الذي يختلف عن البشر الناقصين، كما أنه الكامل في النقاوة والعدالة والأمانة.. ولذلك يسبِّحه شعبه حتى في وسط شدة آلامهم وضيقة نفوسهم، فتتصاعد تسبيحاتهم كسحابة بخور عطر نحو عرشه العظيم. وفي آيتي 4، 5 يعترف المرنم أن الله خلّص شعبه المتكل عليه، ونجّاهم. فلماذا لا يحدث الأمر نفسه الآن؟.. إنها صلاة واثق متروك، يصرخ إلى الإله الأمين صاحب المعجزات القديمة.

2 ـ تواضع المسيح المتألم: (آيات 6–8).

(أ) **اعتبروه على غير حقيقته:** «أما أنا فدودة لا إنسان، عار عند البشر، ومحتقر الشعب» (آية 6). هو الإنسان الكامل، ولكنه رضي أن يعتبروه دودة محتقرة يحسب الذي يراها أنه يقدر أن يهلكها بقدمه، وهي عاجزة عن رد الأذى! وهو نفس الوصف الذي نقرأه عن المسيح في نبوة إشعياء 41: 14. ومكتوب عنه أيضاً «محتقرٌ ومخذول من

الناس» (إش 53: 3) حتى أن الشعب طلب من بيلاطس أن يطلق لهم باراباس القاتل ويصلب المسيح. لم ينظروا إليه كإنسان، بل أهانوه وطعنوه كأنه «دودة» وحمّلوه صليبه حتى سقط تحته.

(ب) تعرَّض للسخرية: «كل الذين يرونني يستهزئون بي. يفغرون الشفاه ويُنغضون الرأس (احتقاراً وكراهية وإعلاناً لرفضهم له) قائلين: اتكل على الرب فلينجِّه. لينقذه لأنه سُرَّ به» (آيتا 7، 8). وقد تحققت هذه النبوة بحذافيرها عند الصليب، فإن الكهنة والشعب، واليهود والوثنيين، والمدنيين والجنود، والشرفاء واللصوص سخروا منه قائلين: «خلَّص آخرين، أما نفسه فما يقدر أن يخلّصها.. قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده» (مت 27: 42، 43) وهم لا يعلمون أنه لم يخلّص نفسه لأنه يريد أن يخلّصنا.

وإذ نقرأ هذه الآيات نتساءل: هل نتعجب من قسوة الإنسان؟ أو نتعجب من محبة الفادي وهو يصلي لأجل صالبيه: «يا أبتاه، اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون؟» (لو 23: 34). فما أقسى الإنسان، وما أعظم محبة الله!

3 - ثقة المسيح المتألم: (آيات 9-11).

«لأنك أنت جذبتني من البطن. جعلتني مطمئناً على ثديي أمي. عليك أُلقيتُ من الرحم. من بطن أمي أنت إلهي. لا تتباعد عني لأن الضيق قريب. لأنه لا معين».

قال أعداؤه: «اتكل على الرب فلينجّه» وصَدّقوا في ما قالوا، فحوّل كلماتهم إلى صلاة. لقد برهنت كل حياته الماضية أنه حبيب الله. وهذا ما أعلنه الملاك للعذراء مريم: «الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظللك، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله». وهو ما أعلنه الملاك للرعاة: «أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب: أنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب» (لو 1: 35 و2: 10، 11).

ثم يحوّل سؤاله في الآية الأولى «لماذا تركتني؟» إلى طلبة «لا تتباعد عني لأن الضيق قريب. لأنه لا معين» وهي طلبة يعود فيكررها في آية 19.

ومن الثقة التي تعلنها آيات 9-11 نتعلم أن الإيمان يجد سلاحه في كل مكان، مهما كانت المعركة قاسية! لذلك يقول إشعياء بروح النبوة بلسان المسيح: «دُستُ المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد» (إش 63: 3).

4 - آلام المسيح من قسوة المحيطين به: (آيات 12-18). وفي هذه الآيات يصف المرنم أعداءه القُساة، ثم يذكر ما فعلوه به.

(أ) أوصافهم:

(1) ثيران كثيرة قوية: «أحاطت بي ثيران كثيرة. أقوياء باشان اكتنفتني. من قرون بقر الوحش استجب لي» (آيتا 12، 21ب). إنهم كالثيران الكثيرة القوية التي ترعى في مراعي باشان النضيرة، وهي من أفضل المراعي التي يربّون عليها أسمن الثيران وأقواها. وهم متوحشون كبقر الوحش ذي القرون القوية. فأعداء المسيح المحيطون به أقوياء يهاجمونه.

(2) أسود: «فغروا عليّ أفواههم كأسد مفترس مزمجر.. خلِّصني من فم الأسد» (آيتا 13، 21أ).

(3) كلاب: «لأنه قد أحاطت بي كلاب.. أنقِذ من يد الكلب وحيدتي» (آيتا 16أ، 20ب). ووحيدته هي حياته.

(4) أشرار: «جماعة من الأشرار اكتنفتني» (آية 16ب). حاول بيلاطس أن ينقذه منهم، لكنهم صرخوا: «اصلبه! اصلبه!».

(ب) ما فعلوه به:

(1) أوصلوه إلى نهايته: «كالماء انسكبْتُ. انفصلت كل عظامي. صار قلبي كالشمع، قد ذاب في وسط أمعائي» (آية 14). وهو وصف لمن شُدَّ جسده معلقاً على صليب حتى تمزق. إنه كالماء الذي إذا انسكب لا يعود له وجود في مكانه.

(2) أصابوه بالعطش القاتل: «يبسَت مثل شقفة قوتي، ولصق لساني بحنكي. وإلى تراب الموت تضعني» (آية 15). أصاب الجفاف جسده فقال: «أنا عطشان» (يو 19: 28).

(3) ثقبوا يديه ورجليه: «ثقبوا يديَّ ورجليَّ» (آية 16). وهذا ما جرى للمسيح بالفعل على الصليب.

(4) أحصوا عظامه: «أُحصي كل عظامي» (آية 17). وهذا يمكن في حالة شدّ جسد المصلوب فتظهر عظامه واضحة. لقد تعرى آدم الأول بسبب الخطية، وتعرى آدم الثاني ليستر ما عرّانا به أبونا الأول آدم. ولقد سترنا المسيح ببره.

(5) شمتوا به: «ينظرون ويتفرسون فيَّ» (آية 17). بشماتة وسخرية.

(6) أخذوا ثيابه: «يقسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقترعون» (آية 18). ينتظرون موته ليأخذوا ثيابه ويقتسموها بينهم، مقترعين عليها. وهو ما تحقق حرفياً عند الصليب (مت 27: 35 ولو 23: 34 ويو 19: 23، 24).

5 ـ طِلبة المسيح المتألم: (آيات 19–21).

بعد أن وصف داود بروح النبوّة قسوة أعداء المسيح وآلامه منهم، حوّل نظره إلى الله، وقال: «أما أنت يا رب فلا تبعُد. يا قوتي أسرِع إلى نصرتي» (آية 19). ففي شدة ضعفه يدعو الرب.

ثانياً ـ نبوّات عن نصرة المسيح

(آيات 22-31)

يقدم لنا القسم الثاني من المزمور نبوات عن انتصار المسيح، فلا يجب أبداً أن ننظر إلى يوم الجمعة، يوم صلب المسيح، دون أن ننظر في الوقت نفسه إلى فجر يوم الأحد، وقت قيامته، فالمسيح الذي صُلب ومات ودُفن قام منتصراً، وهو الوحيد الذي خلا قبره من جسده، ولم يعد جسده للقبر أبداً، ولن يعود، لأنه الحي الذي لا يقدر القبر أن يحتويه، بعد أن قدّم نفسه فدية عنا، وقام ظافراً هازماً الموت. خلا قبره من ساكنه، لأن ساكنه قام قيامة عزيز مقتدر! لقد أيقن صاحب المزمور أن صلواته قد استُجيبت، فأخذ يهتف هتاف الظافر.

وفي هذا القسم نرى دعوة عامة للتسبيح (آيات 22–26) ثم نرى أن التسبيح يبارك الجميع بمن فيهم الجيل القادم (آيات 27–31).

1 ـ دعوة عامة للتسبيح: (آيات 22–26).

(أ) يبدأ المرنم نفسه بالتسبيح: «أُخبر باسمك إخوتي، في وسط الجماعة أسبّحك» (آية 22). والمقصود بـ «اسم الله» هنا كل ما أعلن الله لنا ذاته به. والخبر الذي يذيعه المرنم هنا هو صليب المسيح وقيامته، مما يعلن لنا محبة الله وقداسته وقوته وحكمته وبره وفداءه. وفي هذه الآية يدعو المسيح المؤمنين إخوته. ويقول كاتب العبرانيين «لأن المقدِّس والمقدَّسين جميعهم من واحد، فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم إخوة» ثم يقتبس آية 22 من مزمورنا ويوضح أن

قائلها هو المسيح (عب 2: 11، 12). ويتم هذا التسبيح وسط الجماعة كلها، وأمام الكل، اعترافاً بالفضل وإعلاناً لعظيم عمل الله. «بشّرت ببرِ في جماعة عظيمة. هوذا شفتاي لم أمنعهما. لم أكتم عدلك في وسط قلبي. تكلمتُ بأمانتك وخلاصك. لم أُخفِ رحمتك وحقك عن الجماعة العظيمة» (مز 40: 9، 10).

(ب) كلمات التسبيح: «يا خائفي الرب سبحوه. مجّدوه يا معشر ذرية يعقوب، واخشوه يا زرع إسرائيل جميعاً، لأنه لم يحتقر ولم يرذل مسكنة المسكين، ولم يحجب وجهه عنه، بل عند صراخه إليه استمع» (آيتا 23، 24). وهذه دعوة إلى كل مؤمن إيمان إبراهيم، وكل مختار اختيار يعقوب، بغضّ النظر عن جنسيته وطائفته، ليسبحوا الله الذي عظّم مسيحه، فرفعه إليه، وقال عنه: «من تعب نفسه يرى ويشبع، وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين، وآثامهم هو يحملها. لذلك أقسم له بين الأعزاء، ومع العظماء يقسم غنيمة، من أجل أنه سكب للموت نفسه وأُحصي مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين» (إش 53: 11، 12).

ينقلنا المرنم في هاتين الآيتين إلى جو جديد يجعلنا نسبح الله ونشكره على يوم الصلب، وهذا ما فعله المسيح بعد أن رسم لتلاميذه سر العشاء الرباني، الذي يذكّرهم بموته، وبعدها سبَّح مع التلاميذ، واتجهوا إلى جبل الزيتون حيث أُلقي القبض عليه (مت 26: 30).

(ج) وهو تسبيح عام: «من قِبلك تسبيحي في الجماعة العظيمة» (آية 25أ). لقد ملأ الرب قلب المرنم بالسرور والفرح، فانطلق لسانه يهتف. تسبيحه من قِبَل الرب بسبب ما فعله الرب معه. فما أعظم هذا الانتصار الذي يجب أن يملك مشاعرنا الآن، فنسبح الله في الجماعة العظيمة، جماعة المؤمنين ومن سيصبحون مؤمنين، ونقول لهم: المسيح قام، بالحقيقة قام!

(د) وهو تسبيح مقترنٌ بوفاء النذور: «أوفي بنذوري قدام خائفيه» (آية 25ب). وفى المسيح بما وعد به، وبذل للموت نفسه، وقال عند دخوله إلى العالم: «ذبيحة وقرباناً لم تُرِد، ولكن هيَّأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرّ. ثم قلتُ: هئذذا أجيء. في درج الكتاب مكتوب عني لأفعل مشيئتك يا الله» (عب 10: 5-7).

(هـ) وهو تسبيح مشبع: «يأكل الودعاء ويشبعون. يسبّح الرب طالبوه. تحيا قلوبكم إلى الأبد» (آية 26). هذه وليمة تُشبع المساكين بالروح، الجياع والعطاش إلى البر. كانوا يموتون جوعاً فأشبعهم الرب من مائدته، تجاه مضايقيهم!.. هذه دعوة للشبع إن قبلنا دعوة الله الكريمة: «أيها العطاش جميعاً هلموا إلى المياه.. استمعوا لي استماعاً وكُلوا الطيّب ولتتلذّذ بالدسم أنفسكم» (إش 55: 1، 2). وكانت شريعة موسى قد رسمت «ذبيحة السلامة» للمؤمن الذي يشعر بفضل الله عليه، فتبارك نفسه الرب. وكان عليه أن يحرق جزءاً من «ذبيحة السلامة» ويأكل منها هو ومن معه أمام الرب في يوم تقديمها. إنها وليمة شكر (لا 7: 29-34). قال المسيح: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو 6: 51).

والآن دعونا نأتي إليه فنجد الشِّبع الحقيقي، لأن من يقبل دعوة المسيح يتشرّف بدخوله إلى قلبه. فيدخل المسيح القلب ويشبع الحياة (رؤ 3: 20).

2 - التسبيح يبارك الجميع: (آيات 27-31).

(أ) سجود الأمم للرب: تتَّسع دائرة رؤية المرنم من «معشر ذرية يعقوب» (آية 23) إلى العالم كله، فيرى الكل يسبّح الرب ويتعبّد له، فيقول: «تذكر وترجع إلى الرب كل أقاصي الأرض، وتسجد قدامك كل قبائل الأمم» (آية

27). وهذه أول البركات، فالرسالة هي للجميع. كل أقاصي الأرض «تذكر – ترجع – تسجد». «تذكر» نتيجة تبكيت الروح القدس، فيقولون مع الابن الضال: «أقوم وأذهب إلى أبي». «ترجع» بالتوبة تاركة كل إله غير الرب. «تسجد» فتقدم العبادة والطاعة. واليوم، في كل ركن من أركان العالم يُكرز بخبر الإنجيل المفرح، ويُعلَن صليب المسيح وقيامته، فيرجع الملايين إليه تائبين. فلنقدم نفوسنا له ساجدين بالخضوع.

(ب) سبب سجود الأمم للرب: «لأن للرب المُلك، وهو المتسلط على الأمم» (آية 28). أجرى المسيح المعجزات، ولا زال يجريها، فأظهر سلطانه على الطبيعة والمرض والأرواح الشريرة والموت، وقال: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم» (مت 28: 18، 19). فيهتف له المفديون قائلين: «مستحق هو الحمل المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة» (رؤ 5: 12).

(ج) ثلاثة أنواع من الساجدين للرب:

(1) الظالمون: «أكل وسجد كل سميني الأرض» (آية 29أ). عندما يتوب الذين يسمنون لأنهم يسطون على ثروات المساكين ويأكلونها، يطعمهم الرب من مائدته، فيشبعون، ويسجدون.

(2) المظلومون: «قدامه يجثو كل من ينحدر إلى التراب، ومن لم يُحْيِ نفسه» (آية 29ب). المنحدرون إلى التراب هم المضطهَدون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم، الذين عندما ينصفهم الرب يسجدون له شكراً. وهم الذين لا يستطيعون أن يُحيوا نفوسهم لأنهم أموات بالخطية، ولكن عندما ينالون حياة روحية يسجدون تهليلاً. وهم كل البشر، فلا يوجد من يقدر أن يحفظ نفسه حياً، فقد وُضع للناس أن يموتوا. ولكن المسيح وعدهم بالحياة الأبدية، ولذلك يسجدون لله وحمداً.

(3) الجيل القادم: «الذرية تتعبّد له. يُخبَّر عن الرب الجيل الآتي. يأتون ويخبرون ببره شعباً سيولد بأنه قد فعل» (آيتا 30، 31). فالجيل الحاضر الذي عرف النعمة الإلهية يخبر الجيل الآتي. وهذه مسؤولية علينا من نحو الجيل القادم. فعلى الذين أخذوا مشعل النور والإنجيل من الجيل الذي سبقهم أن يسلموه إلى الجيل القادم أكثر اشتعالاً ولمعاناً. وهذا هو أمل العالم اليوم وغداً.

(د) سبب تسبيح المرنم: «قد فعل» (آية 31). وهي نفسها الكلمة الأخيرة التي قالها المسيح على الصليب «قد أُكمل». لقد تمَّ الخلاص، هللوا رنموا لربنا يسوع.

والآن دعونا نتذكر آلام المسيح، وانتصاره من أجلنا. ولنأت إليه لنشبع من وليمته السماوية التي يدعونا إليها، فيقول كل واحد منا: «أخبر باسمك إخوتي. في وسط الكنيسة أسبحك».

اَلْمَزْمُورُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ

مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1اَلرَّبُّ رَاعِيَّ فَلاَ يُعْوِزُنِي شَيْءٌ. 2فِي مَرَاعٍ خُضْرٍ يُرْبِضُنِي. إِلَى مِيَاهِ الرَّاحَةِ يُورِدُنِي.
3يَرُدُّ نَفْسِي. يَهْدِينِي إِلَى سُبُلِ الْبِرِّ مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ. 4أَيْضاً إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لاَ أَخَافُ شَرّاً، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي. 5تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً تُجَاهَ مُضَايِقِيَّ. مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي. كَأْسِي رَيَّا. 6إِنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانِنِي كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي، وَأَسْكُنُ فِي بَيْتِ الرَّبِّ إِلَى مَدَى الأَيَّامِ.

مزمور الراعي

ملأ هذا المزمور عالمنا بفرح غامر، هو فرح الثقة بالرب الذي يرعى شعبه. وهو فرح الطمأنينة بأمانة الرب مع من يتبعونه في ثقة ومحبة وطاعة، ففي اتِّباع الرب الراعي لا احتياج ولا خوف، لأنه يسدِّد كل الأعواز المادية والروحية والفكرية والنفسية والعاطفية، اليوم وكل يوم، فهو «القادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف 3: 20).

كُتب هذا المزمور في صيغة المفرد، فالمرنم يتكلم عن نفسه، وعن علاقته بإلهه «الرب راعيَّ». إنه مزمور شخصي، فكل حَمَل في القطيع يمكن أن يخصص لنفسه ما يفعله الراعي الصالح مع القطيع كله.

كم من مؤمن متألم وجد راحته في كلمات هذا المزمور، وكم من فقير طاب خاطره به، وكم من مريض دهنه ببلسان تعزيته، وكم من مؤمن مضى إلى راحته الأبدية بسلام وهو يرتِّل آياته! لقد حطم قيود الألوف، كما حطم الملاك سلاسل بطرس السجين!

قال القديس أغسطينوس إن مزمور 119 يشبه الشجرة الكبيرة الوارفة الظل، بينما مزمور 23 يشبه الوردة الجميلة المتفتِّحة التي تملأ الجو المحيط بها عطراً وشذى. ودعا مارتن لوثر هذا المزمور «البلبل المغرد في الليل». كل كلمة من كلمات مزمور 23 كاللؤلؤة الثمينة المضيئة التي تملأ كل ما حولها بالنور والضياء.

أغلب الظن أن داود كتب هذا المزمور بعد أن انتصر على أعدائه، وأرسى قواعد مملكته، وتمتع بالراحة والاطمئنان، لأن هذا المزمور يحمل لغة الاختبار العميق الذي لا يمكن أن يسجله لنا إلا شيخٌ جليل تعمَّق في معرفة الرب سنوات طويلة، واختبر صلاحه معه في أوقات الانتصار والفرح كما في أوقات الهزيمة والحزن، فأدرك بنفسه جود الرب وصلاحه. ولا بد أن داود كان يسترجع ذكرياته الجميلة وهو يرعى قطيعه بين جداول المياه المنسابة وسط المراعي الخضراء.

والذي يقرأ مزموري 22، 24 يكتشف معنى رائعاً، فمزمور 22 يصف جبل الجلجثة، ومزمور 24 يصف جبل المجد. يبدأ مزمور 22 بالكلمات التي نطق بها المسيح على الصليب: «إلهي إلهي، لماذا تركتني؟» وينتهي بالقول: «قد فعل» أو «قد أُكمل» فمزمور 22 هو مزمور الصليب!

أما مزمور 24 فيصوّر لنا الملك المنتصر يدخل مملكته «ارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد. من هو هذا ملك المجد؟ رب الجنود هو ملك المجد». إنه مزمور مجيء مملكة المجد!

وبين المزمورين نرى مزمور 23 مزمور الوادي الأخضر بمياه الراحة، حيث يقود الراعي الصالح قطيعه الذي سُرَّ أن يعطيه الملكوت!

في هذا المزمور نجد:

أولاً – صورة الراعي الصالح (آيات 1–4)

ثانياً – صورة المضيف الكريم (آيات 5، 6)

أولاً ـ صورة الراعي

(آيات 1-4)

هو الراعي الذي يدبر كل احتياجات شعبه فيعطي المأكل والمشرب، ويرد الضال، ويهدي الحائر، ويحمي الخائف، ويشجع المتعب. والأغنام غالية على الراعي لأنه اشتراها بثمن كبير، فهي خاصته التي يعتز بها.

1 ـ علاقة الراعي بقطيعه علاقة شخصية: «الرب راعيَّ» (آية 1أ). الرب هو الراعي، أما نحن فغنم مرعاه، والغنم معروفة بضعفها وغبائها. تعرف أن تضل، لكنها لا تعرف طريق العودة، كما أنها عاجزة عن حماية نفسها! والراعي هو كل شيء لها. إنه المدبّر والحامي، والقائد.

وفي كل ثقة يقول داود: «الرب راعيَّ» (آية 1). لم يقل «أرجو أن يكون راعيَّ». ولا قال «أحياناً هو راعيَّ». ولكنه قال: «الرب راعيَّ» فعلاً ويقيناً ودوماً. «فإني متيقِّن أنه لا موت ولا حياة.. ولا علو ولا عمق، ولا خليقة أخرى، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو 8: 38، 39) «لأني عالم بمن آمنت، وموقنٌ أنه قادر أن يحفظ وديعتي إلى ذلك اليوم» (2تي 1: 12). وما أجمل هذه الثقة! لا خوف من أن الراعي يرفضنا، لأنه يحبنا. المؤمن في يد راعيه فعلاً ودوماً «لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3: 16).

قال المسيح: «أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.. وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب.. خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، أنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد ولا يخطفها أحد من يدي» (يو 10: 11، 14، 27، 28). ولا يحقُّ لإنسان أن يقول إنه من خراف المسيح إلا إن كان قد صار خليقة جديدة في المسيح وأخذ منه طبيعةً جديدة. وكل من لم ينالوا الطبيعة الجديدة يصفهم الكتاب المقدس بأنهم «جداء» و«ذئاب».

والقول «الرب راعيَّ» يرينا الاختبار العميق والثقة الكاملة للمرنم. «راعيَّ» لي، وأنا له. صحيح أنه يرعى القطيع كله، لكن المرنم يشعر أن الراعي مخصَّص له وحده، وكأنه يقول: أنا أشعر بعنايتك ورعايتك لي يا رب، وكأنه لا يوجد على الأرض محتاجٌ لرعايتك سواي! ألم يقل الراعي الصالح: «لأجلهم أقدّس أنا ذاتي» بمعنى أخصص ذاتي (يو 17: 19). إذاً فهو لي. نعم! حبيبي لي!

هناك صلة شخصية بين الرب الراعي والمؤمن التابع، فليس الرب عنا بعيداً. إنه المحبة المتنازل إلينا، وليس المتعالي علينا. ويقول المؤمن «الرب راعيَّ» لأن الله المحب يسكن قلبه. قال عنه يعقوب أبو الأسباط: «الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم» (تك 48: 15).

«الرب راعيَّ». إنه لي. كان لي بالأمس، وهو لي اليوم، وسيظل يرعاني كل الأيام إلى انقضاء الدهر! إنه كلي المحبة، وكلي القدرة، وكلي الحكمة. لن يمضي عليَّ يوم بدون رعايته الحلوة. هذه الرعاية دائمة بالليل والنهار. في النهار يرعى ويغذي. وفي الليل يسوق قطيعه للحظيرة، وهي بناء ذو أربعة جدران، في أحدها فتحة (هي الباب) يدخل منها القطيع، ثم ينام فيها الراعي، ويقول: «أنا هو الباب» (يو 10: 9). لا يخرج خروف إلا ويشعر به، ولن يدخل غريب إلا فوق جسده، فإن من يمسّ قطيعه يمس حدقة عينه. وعندما يكون الخروف سليماً يسير بجانب راعيه، فإذا مرض يحمله الراعي على كتفه. فالخروف موضع الاهتمام الدائم الذي لا ينقطع.

2 - علاقة الراعي بقطيعه هي علاقة تدبير كل احتياج: «فلا يعوزني شيء» (آية 1ب). يذكر المرنم خمسة أشياء يدبرها الراعي لقطيعه: أولها الطعام، فيقول: «في مراعٍ خضر يربضني». وثانيها الماء «إلى مياه الراحة يوردني». وثالثها الراحة «مياه الراحة». ورابعها الشفاء من الضلال «يردُّ نفسي». وخامسها الإرشاد «يهديني إلى سبل البر».

«الرب راعيَّ» والنتيجة الحتمية لذلك «فلا يعوزني شيء» اليوم وغداً وكل يوم! قال موسى للشعب عن مسيرته في الصحراء: «الآن أربعون سنة للرب إلهك معك، لم ينقص عنك شيء» (تث 2: 7). ثم قال لهم عن الأرض التي انتقلوا إليها: «لا يعوزك فيها شيء» (تث 8: 9). أحياناً «نريد» بعض الأشياء ولكنها في واقع الأمر لا تعوزنا، فليس من الضروري أن يعطيها الرب لنا. لكنه دوماً يعطينا ما نحتاجه. فقد يكون في ما نريده ونطلبه ضرر لنا أو أذى علينا. أو قد يكون ما نريده أقل نوعاً وكيفاً وكمّاً مما يريد أبونا السماوي أن يعطيه لنا. فيجب أن تكون صلاتنا: «لتكن إرادتك» لأننا لا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي.. وهو يختار لنا حظنا. وبالتأكيد لن يعوزنا وقتها شيء. «لم تمنع مَنَّك عن أفواههم، وأعطيتهم ماءً لعطشهم، وعُلتهم أربعين سنة في البرية فلم يحتاجوا. لم تبْلَ ثيابهم ولم تتورَّم أرجلهم» (نح 9: 20، 21). يكتشف المؤمن أن المسيح نفسه هو غذاؤه وماؤه، وهو يعطي نفسه للمؤمن ويقول: «مَن يأكلني يحيا بي» (يو 6: 57). وقد سأل المسيح تلاميذه: «حين أرسلتُكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية: هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا» (لو 22: 35).

«اتَّقوا الرب يا قديسيه لأنه ليس عوزٌ لمتّقيه. الأشبال احتاجت وجاعت، وأما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير» (مز 34: 9، 10). «فيملأ إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (في 4: 19). إنه يطعم الغربان ويكسو زنابق الحقل، وقطيعه أعظم جداً منهما!

«في مراعٍ خضر يربضني. إلى مياه الراحة يوردني» (آية 2). إلى المرعى الخصيب، الدسم، الوفير، دائم الخضرة. إلى كلمة الله المغذية المشبعة المقوية. إلى مياه الراحة الخالية من الأمواج. والرب يهدئ أمواج البحار أمام محبّيه.

ويوردهم إلى مباهج الروح القدس، الذي يعطي النفس الراحة والاطمئنان والأمن والاستقرار. يوردهم إلى سلام كامل وإلى فرح مجيد. إنه يقودنا إلى مياه الراحة التي تروي عطشنا الروحي، وتضع نهاية له، ثم تفيض منا إلى غيرنا لنروي كثيرين، فيتحقق معنا قول المسيح: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد، بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية. إن عطش أحدٌ فليُقبل إليَّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو 4: 14 و7: 37، 38).

أما مسؤولية المؤمن فهي أن يربض حيث يُربِضه راعيه ويورده. وفي هذا تسليم وخضوع للقيادة الحكيمة الواعية القادرة، فلا يستطيع أحد أن يربض إلا إذا كان مطمئناً واثقاً غير خائف، فكل احتياجاتنا فيه. وكلما كنا في رعايته نخلص من القلق والخوف، لأنه «الباب» الذي يخلُص الداخلون منه ويجدون مرعى (يو 10: 9). فهل أنت داخل حظيرة الرب؟ هل تقدر أن تقول بثقة: «الرب راعيَّ»؟ إن كنت بعيداً أقبِل إليه، تنل منه الرعاية والحماية والشبع.

3 – علاقة الراعي بالقطيع تجعله يرد الضال: «يرد نفسي» (آية 3أ). يرتكب المؤمن خطأً مؤسفاً عندما يضل عن راعيه! والخراف مشهورة بالغباء وقِصر النظر، وهي لا ترى إلا إلى مسافة قصيرة، ولو أنها تميّز الصوت فقط. وما أكثر ما يسير واحد منها في طريق خاطئ، فإذا ببقية القطيع يتبعه بدون تفكير. وعندما يصلون إلى مكان خطر لا يعرفون كيف يرجعون! وما أعظم الشبه بين المؤمن والحمل. فكلاهما بطيء الفهم بكل ما علّم به الكتاب وبكل ما اكتشفه من صلاح الراعي. لذلك يقول النبي الإنجيلي إشعياء: «كلنا كغنم ضللنا، ملنا كل واحد إلى طريقه» (إش 53: 6). كم من مرة سرنا مع الراعي الصالح، نتمتع برعايته الممتازة ولا يعوزنا معه شيء، وفجأة ننحرف إلى سبيل يصفه الحكيم بالقول: «توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة، وعاقبتها طرق الموت» (أم 14: 12)! ترى ماذا لفت نظرنا؟ هل ظننا أن هناك مرعى أكثر اخضراراً من المرعى الذي قادنا راعينا إليه؟ هل تخيّلنا أن هناك مكاناً أكثر أماناً وراحة من المكان الذي أربضَنَا راعينا فيه؟ هل تبعنا قيادة ضالة قادت أقدامنا إلى مزالق خطرة، دون أن نُمعن التفكير في نتائج الانحراف؟.. ليس هناك سبب معقول يبرر ضلالنا عن الراعي، فإننا بلا عذر! ولكن المؤسف أننا نضلّ عنه!

تهتُ عن القطيع مثل الخروف الضال
ينأى عن الراعي الوديع في القفر والجبال
مهاجِرَ الأوطان كالشارد الأثيم
بل تهتُ في قفر الهوان عن الآب الرحيم

لكن الراعي الصالح لا يمكن أن يترك الخروف الضال. كان الحَمَل الذي يضيع يصل أحياناً إلى مكان به راعٍ آخر. فكان الراعي الثاني يذبحه نصف ذبحة، ويتركه فترة، فإذا جاء راعيه ووجده، يضمد جراحه ويحمله على كتفه ويعود به إلى حيث ينال الشفاء. أما إذا ابتعد الحمل عن راعيه مسافة طويلة، ولم يجده راعيه بالسرعة المناسبة، فإن الراعي الغريب يأكل لحم ذلك الضال! ونحن نضلّ، ولكن الراعي الصالح يسرع بالتفتيش علينا، ويظل يفتش حتى يجدنا. وهذا ما أعلنه المسيح لنا في مثل الراعي الذي ذهب يفتش عن الواحد الضال حتى وجده (لو 15: 1–6). فالضال لا يفتش عن راعيه، بل الراعي هو الذي يفتش عليه فيتم فينا القول: «لأنكم كنتم كخراف ضالة، لكنكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأسقفها» (1بط 2: 25).

هل كانت لك علاقة حلوة بالرب وفترت؟ هل كانت لك خدمة ملحوظة وتوقَّفت؟ هل تحيا حياة عصيان علني؟ يريد الرب أن يردّك إلى الحالة الأولى التي كنت فيها، إلى شركة أعمق، وخدمة أنجح، وطاعة أكثر. إنه يريد أن يُرجعك إلى أحسن حال. لا تفشل، بل اذكر من أين سقطت وتُب، وأسرِع إلى حظيرة راعيك قائلاً: «يرد نفسي». فعندما تخطئ يطهرك، وعندما تضعف يقويك، وعندما تخاف يطمئنك، وعندما تحزن يعزيك.

4 - علاقة الراعي بالقطيع تجعله يهديها إلى السبل المستقيمة: «يهديني إلى سبل البر من أجل اسمه» (آية 3ب). الراعي الصالح في محبته، لا يرد نفسك فقط، بل يهديك أيضاً. والكلمة «يهديني» تحمل معنى الرقّة والعناية «كراعٍ يرعى قطيعه. بذراعه يجمع الحملان وفي حضنه يحملها، ويقود المرضعات» (إش 40: 11). فهو يعلم أنك معرَّض للسقوط بسبب ضعف طبيعتك البشرية، وبسبب غواية الشيطان. فيهديك إلى سبل البر التي لا يعتسف فيها أعرج ولا يسقط فيها ضعيف.

في زمن الشتاء تصير الطرق موحلة، وتسير عليها العربات فتترك فيها منخفضات ومرتفعات. وحين تجف يصعب على الخراف الرقيقة السير فيها، فيختار الراعي الصالح لها طرقاً ممهّدة، أو يُصلح لها الطرق الخشنة. وهذا ما يفعله راعينا الصالح، الذي يهدي خطواتنا في سبل البر. والبر هو الاستقامة، وسبل البر هي السبل المستقيمة، وهي كثيرة، وطرق خدمة الرب متعددة، يقول لنا عنها: «أريتُك طريق الحكمة. هديتك سبل الاستقامة» (أم 4: 11). فأي السبل ستسلك لتخدم الرب؟ وفي أي طرق ستسير لتعمل إرادته؟ هناك مواهب كثيرة يعطيها الرب للمؤمنين، وكلها مستقيمة ويجب استخدامها بالعدل. وإذ نسلك سبل البر نعطي كل ذي حق حقه، فنعطي الرب حقه علينا من الطاعة والمحبة والثقة ونقدم له عشور دخلنا. ونعطي الآخرين حقهم من الخدمة والود. ونعطي نفوسنا حقها فنتمم خلاصنا بخوف ورعدة نائلين غاية إيماننا: خلاص نفوسنا، ونجاهد قانونياً، لعلنا ندرك الهدف الذي لأجله أدركنا المسيح وخلّصنا (في 3: 12).

كثيرون لا يرون لحياتهم معنى، ويتساءلون: لماذا أنا هنا؟ والإجابة: إنك في موقعك لأن الله يهديك سبُل الاستقامة. اطلب معرفة إرادته ونفّذها، فتختبر الحياة الفضلى التي يهبها لك المسيح (يو 10:10).

وكم نشكر الراعي الصالح لأنه يفعل هذا كله «من أجل اسمه» وليس لأجلنا نحن. هو الذي أطلق اسمه علينا، فأصبحنا ننتسب وننتمي إليه. لقد دُعينا مسيحيين نسبة إلى المسيح راعينا العظيم، وفي هذا كل الضمان لنا. فلو أن الخير الذي فينا دفع الله لأن يهدينا، ثم توقفنا عن عمل هذا الخير، عندها تنتهي هدايته، لأن الخير الذي فينا قد انتهى! لكن كم نشكره لأن هدايته لنا لا تنتهي أبداً، لأنها «لأجل اسمه» الذي لا يتغير أبداً!

5 - علاقة الراعي بالقطيع مستمرة حتى في الوادي المظلم: «أيضاً إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي» (آية 4أ). ووادي ظل الموت هو الوادي شديد الظلام، الذي يسمح الراعي الصالح لنا أن نسير فيه أحياناً. ليس كل الطريق معه مراعٍ خضر، ولا كلها مياه راحة، بل في العالم سيكون لنا ضيق، ولو أننا واثقون أن المسيح قد غلب العالم (يو 16: 33) وقد وُهب لنا لأجل المسيح لا أن نؤمن به فقط، بل أيضاً أن نتألم لأجله (في 1: 29) ولكن وسط هذه المتاعب نجد رعايته المفرحة. ونحن لا نسير في وادي ظل الموت وحدنا، لأنه دائماً معنا.

يقول المرنم: «إذا سرتُ». إنه لا يجري برعب وهلع، لكنه يسير في اطمئنان وسلام. إن المرتعب «يجري» ولكن الواثق «يسير» على مهل، بدون خوف، لأنه يعرف طريقه، ويعلم أنه ليس للإنسان طريقه، ولا لإنسان يمشي أن يهدي خطواته (إر 10: 23) لأنه متأكد أن الرب يثبت خطواته. «من قِبل الرب تتثبَّت خطوات الإنسان وفي طريقه يُسرّ» (مز 37: 23).

ويسير المؤمن في وادي ظل الموت بغير خوف لأنه يعرف نهاية طريقه، ولأنه يعرف أنه مجرد عابر. فبعد أن يدخل نفق الظلام يخرج حالاً إلى نور الرب، واثقاً بالذي يقدر أن يحفظ وديعته إلى ذلك اليوم، لأنه لا يستطيع أحد أن يخطف المؤمن من يد راعيه الصالح الذي يحافظ على سلامته حتى يوصّله إلى الميناء بسلام (2تي 1: 12 ويو 10: 28).

ولكن لماذا يسمي المرنم الوادي المظلم بأنه «وادي ظل الموت»؟ الإجابة أن الوادي منخفض، تغيب الشمس عنه أولاً، وبعد ذلك تغيب من على القمم العالية. والوادي ضيق في معظم الأحوال. ولهذا يدعوه «وادي ظل الموت».

وكثيراً ما تقابلنا المصاعب التي تحرمنا من رؤية المسيح «شمس البر» فنصرخ: «إلى متى يا رب تنساني كل النسيان؟ إلى متى تحجب وجهك عني؟ إلى متى أجعل هموماً في نفسي وحزناً في قلبي كل يوم؟» (مز 13: 1، 2). وهو في هذا يشبه المجدلية الباكية، وقد امتلأت عيناها بالدموع فعجزت عن رؤية سيدها الحي المقام! ولكن المرنم الذي عمّر الرجاء قلبه يقول: «يا إلهي، نفسي منحنية فيَّ.. أقول لله صخرتي: لماذا نسيتني؟.. لماذا أنت منحنية يا نفسي، ولماذا تئنّين فيّ؟ ترجّي الله لأني بعد أحمده، خلاص وجهي وإلهي» (مز 42: 6-11).

وتطمئن نفس المؤمن لأنه يسير في وادي «ظل» الموت وليس في وادي الموت نفسه! فكما أن ظل الأسد لا يفترس، وظل السيف لا يجرح، هكذا ظل الموت لا يميت! إنه مجرد ظل! وكيف يجيء الظل؟ أليس لأن الشمس تنير من خلفه؟ إذاً لا بد من وجود النور خلف «الموت» حتى نرى الظل! إذاً الشمس خلف الغيمة، كما أن الرب خلف التجربة! يا لسعادتنا! إن الرب يقف من خلف كل مصاعبنا ينير لنا الطريق، وسرعان ما ينقشع الظل ليضيء علينا نور النهار الكامل. «الله أمين، الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ، لتستطيعوا أن تحتملوا» (1كو 10: 13).

لقد عبَرَ المسيح راعينا الصالح وادي ظل الموت من قبلنا، وهزم الموت والقبر، وأعطانا أن نقول بفرحة الانتصار: «أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاوية؟» فلا بد أن نخرج من الوادي المظلم، ونسير ونتقدم. ولا بد أن نخرج من الضيق إلى الرحب، كما قال أليهو صديق أيوب: «يقودك من وجه الضيق إلى رُحبٍ لا حصر فيه» (أي 36: 16). ولذلك قال المرنم: «لتأتني رحمتك يا رب، خلاصك حسب قولك.. فأحفظ شريعتك دائماً إلى الدهر والأبد، وأتمشى في رحب، لأني طلبت وصاياك» (مز 119: 41، 44، 45).
ويمضي المرنم ليقول لله: أنا أسير على مهل وبدون رعب، في وادٍ ضيق مظلم، في ظل موت، ولكن لا أخاف شراً «لأنك أنت معي». قال الله ليشوع: «كما كنتُ مع موسى أكون معك. لا أهملك ولا أتركك. تشدد وتشجع» (يش 1: 5، 6). صُحْبة الراعي الصالح لا ولن تفارقك أبداً. هو معك كل الأيام إلى انقضاء الدهر، وهو الذي لا يتغير أبداً، هو هو أمساً واليوم وإلى الأبد!

لا أخاف، لا أخاف أي شر بوادي
الظلام فمعي راعٍ أمين ماسكٌ
يدي اليمين فيه لي راحة وسلام!

«هوذا الله خلاصي فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً» (إش 12: 2). إنه يقول لنا: «لا تخف لأني معك. لا تتلفَّت لأني إلهك. قد أيّدتك وأعنتك وعضدتك بيمين بري.. لأني أنا الرب إلهك الممسك بيمينك القائل لك: لا تخف. أنا أُعينك» (إش 41: 10، 13). وإذا سار الرب معك يحوّل لك ظل الموت صبحاً «الذي صنع الثُريا والجبار، ويحوّل ظل الموت صبحاً.. يهوه اسمه» (عا 5: 8) فتخرج من ظل الموت إلى النور. «يكشف العمائق من

الظلام، ويُخرج ظل الموت إلى النور» (أي 12: 22) فتقول بالشكر: «عند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنّم» (مز 30: 5). «لا أخاف شراً لأنك أنت معي».

ولا شك أنك لاحظت أن المرنم كان يتكلم عن الرب بصيغة ضمير الغائب «الرب راعيَّ.. لا يعوزني.. يربضني.. يوردني». ولكن ما أن تحدث عن «وادي ظل الموت» حتى انتقل للحديث مع الله بضمير المخاطب فيقول: «لأنك أنت معي».

المزمور وصفي، حتى يجيء صاحبه إلى «وادي ظل الموت» فيتحول من الحديث عن الله إلى الحديث إلى الله. آلام الحياة تدفعنا للركوع مصلّين. كان تلميذا عمواس عابسَين واليأس يملأ قلبيهما، لأن المسيح صُلب ومات ودُفن. ولكن ما أن بدءا الحديث مع المسيح حتى ارتفعت غمامة اليأس والحزن، وحلّ الرجاء والفرح. في وقت خوفك وحزنك تحوّل من الحديث عن الله إلى حديثٍ مع الله، فتمتلئ نفسك بالطمأنينة والسلام.

6 - علاقة الراعي بالقطيع فيها استخدام العصا والعكاز: «عصاك وعكازك هما يعزِّانني» (آية 4ب).

(أ) العصا والعكاز يُشعِران القطيع أن الراعي يسير معهم: عندما تسير الخراف في الوادي المظلم تخاف لأنها لا ترى الطريق أمامها، ولا ترى الراعي معها. والراعي، في محبته، يريد أن يطمئن الخراف، ويجعلها تشعر أنه معها، فيمدُّ عصاه أو عكازه ويلمس ظهورها لمساً رقيقاً فتحس أنه معها.

هل تحس بلمسة الراعي المحب لك؟ إنه يريدك أن تشعر بوجوده الدائم معك. «إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً، لأنك أنت معي». لا أدري كيف تجيئك لمسته الرقيقة الحانية. قد تجيء في آية كتابية تلهمك، وقد تجيء في عطية مادية لم تكن تتوقعها، وقد تجيئك في كلمة مشجعة من صديق لم تكن قد سمعت منه منذ مدة، وقد تجيئك في مسؤولية أكبر من قدراتك الذاتية. لكنك ستشعر بهذه اللمسة الرقيقة، وستميِّزها بسبب اختباراتك السابقة مع الله، فإن خرافه تميِّز صوته (يو 10: 4) فتدرك في الظلمة الكثيفة أنك في صحبته.

(ب) العصا والعكاز لإحصاء الغنم: كانت الحظيرة دوماً ذات باب واحد، يضع الراعي فيه العصا أو العكاز على ارتفاع منخفض، ويسمح للأغنام بالدخول، فتجوز تحت العصا فيُحصيها، وفي الوقت نفسه يعرف حالة كل واحد منها، فإن كان في بدنها كسر أو مرض يكتشفه، ويقوم فوراً بإجراء الإسعاف اللازم. أما إذا اكتشف ضياع أحد خرافه فإنه يمضي إلى المراعي والجبال التي يرعى أغنامه فيها خلال اليوم ليطلب الواحد الضال، ويفتش عليه حتى يجده.. وتتحدث التوراة عن الإحصاء بالعصا، فنقرأ في سفر اللاويين: «وأما كل عُشر البقر والغنم، فكل ما يعبر تحت العصا يكون العاشر قُدساً للرب» (لا 27: 32) ويقول النبي إرميا عن الرب: «مصوِّر الجميع، وإسرائيل قضيب ميراثه» (إر 10: 16) وهذا يعني أن العكاز والعصا والقضيب تحصي ما يملكه الإنسان من ماشية. وياله من خاطر مطمئن للمؤمن أن يعرف أن راعيه الصالح يعرفه ويعرف حالته باستخدام العصا والعكاز. لقد أحصي الرب عظامنا ونحن في بطون أمهاتنا. «لم تختفِ عنك عظامي حينما صُنعت في الخفاء ورُقِمْت في أعماق الأرض» (مز 139: 15). «أليس هو ينظر طرقي ويحصي جميع خطواتي» (أي 31: 4). وما أروع قول المسيح لنا: «شعور رؤوسكم أيضاً جميعها محصاة» (لو 12: 7).

(ج) العصا لإرشاد الغنم، ولتجنيبها الحُفر: فعندما يرى الراعي أن الحَمل الجاهل يبتعد بحماقته عنه، يمدُّ عصاه ليردَّه إلى سبيل البر، السبيل المستقيم. «كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه» (إش 53: 6) ولكن الرب يُعيدنا بعصا محبته إلى حيث يجب أن نكون. وهذا يعني أننا أعزاء في نظره، وأنه يحسبنا ذوي أهمية في عينيه.

(د) العصا تؤدب الضال: يحدث أحياناً أن أحد الأغنام يضل، وما أكثر ما نضل! عندئذ يضرب الراعي هذا الضال للتأديب. «قبل أن أُذلل أنا ضللت» (مز 119: 67). بل إن الراعي يكسر أحياناً ساق خروف اعتاد الضلال، ثم يعود يجبره حتى يعتاد هذا الضال أن يلتصق براعيه ويبقى إلى جواره في وقت انكساره وضعفه.

ومع أن تأديب الراعي لنا يُرى أنه للحزن، إلا أنه يعطينا بعد ذلك سلاماً، لأننا نعلم أن الذي يحبه الرب يؤدبه، ويجلد كل ابن يقبله! (عب 12: 6). وهذا ما يحدث في حياتنا اليومية، فإن كنت تسير في مكان وسمعت شتائم صادرة من صبي صغير، فإنك تسير دون أن تلتفت. ولكن إن عرفت أن هذه الشتائم صادرة عن ابنك فإنك تتوقف وتهتم وتؤدبه، لأنك تحبه، ولأنه لك، ولأنك تهتم بخيره! إنه خاصتك، ولكن ليس لك بالغرباء شأن. ومما يعزِّينا أن راعينا الصالح بتأديبه لنا يُشعرنا أننا له.

(هـ) العصا والعكاز تدفعان الأغنام لتسير إلى الأمام: ونحن لا نحسب أننا قد أدركنا، لكننا يجب أن نسعى لندرك. وعصا الراعي وعكازه تدفعاننا لنسير إلى الأمام، فنحقِّق الأمر الرسولي: «انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح» (2بط 3: 18).

يشبه المسيحي راكب دراجة يتحتَّم عليه أن يسير إلى الأمام فقط، لأنه إن توقَّف عن التقدُّم يسقط. ونحن نحتاج لتشجيع العصا والعكاز اللذين يدفعاننا إلى الأمام، إلى حيث يجب أن نكون.

(و) العصا والعكاز للدفاع عن الخراف: ما أكثر الهجوم على الخراف الضعيفة العاجزة عن حماية نفسها! قد يحاول الراعي الأجير إيقاع الأذى بها، واللص يحاول أن يخطفها، والذئب والوحش يهاجمها ليفترسها! ولكن الراعي الصالح المستيقظ يحميها بعصاه وعكازه.

ويقول الرب: «وأقطع معهم عهد سلام، وأنزع الوحوش الرديئة من الأرض فيسكنون في البرية مطمئنين وينامون في الوعور» (حز 34: 25). لأن عصا الراعي تضرب الوحش المفترس أو الخاطف اللص. فلا تخَفْ أيها القطيع الصغير، لأن الراعي الصالح يحميك، فلا يقع بك أحد ليؤذيك، ففي عصاه وعكازه الحماية الكاملة.

(ز) وهناك استعمال للعكاز يختلف عن استعمال العصا: فللعصا قطعة حديد في نهايتها، لكن نهاية العكاز معقوفة مثل حرف اللام (ل) في لغتنا العربية، ولذلك يستخدم الراعي العكاز ليُخرج الخروف الساقط من الحفرة التي هوى إليها. وقد يمسك الراعي بساق الخروف أو برقبته ثم يسحبه إلى أعلى. ولا بد أن الخروف يتألم، ولكن ألمه المؤقت ينقذه من الهلاك المحقَّق. ترى هل ابتعدت وهويت في حفرة؟ لتكن لك الطمأنينة في محبة الراعي الذي يستخدم عصاه وعكازه لحمايتك ورعايتك ونجدتك.

ثانياً ـ صورة المضيف الكريم

(آيتا 5، 6)

تحدث داود النبي عن اختباره في الرب باعتباره راعيه الصالح العظيم، ثم انتقل بعد ذلك ليتحدث عنه باعتباره المضيف الكريم، الذي يرتب له المائدة.

ويشبع قلب مؤمني العهد الجديد في الجلوس حول مائدة العشاء الرباني، وهم يتناولون من الخبز ويشربون من الكأس، ويدركون أن شبع حياتهم هو في المسيح الذي قال: «أنا هو خبز الحياة. من يُقبِل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.. أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يو 6: 35، 51).

وفي الحديث عن هذه الضيافة نجد:

1 - الله يرتبها بيده الكريمة: ما أكرم اليد التي تعطي في حب وسخاء ولا تعيّر! أمامه شبع سرور، وفي يمينه نِعَم إلى الأبد (مز 16: 11) فيقول المرنم للرب: «لأنك تتقدَّمه ببركات خير» (مز 21: 3). ويقول لإخوته المؤمنين: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب. طوبى للرجل المتوكل عليه! اتَّقوا الرب يا قديسيه، لأنه ليس عوزٌ لمتَّقيه! الأشبال احتاجت وجاعت، وأما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير» (مز 34: 8-10).

وما أسعد المؤمن الذي يشبع قلبه من وليمة ربه. إن الله نفسه هو الداعي إلى الوليمة «كلوا أيها الأصحاب! اشربوا» (نش 5: 1) فالملك قد أدخلنا إلى بيت الوليمة، وعلمه فوقنا محبة. سنأكل من المن المخفَى الذي آكله لا يجوع، ونشرب من ينبوع ماء الحياة الذي شاربه لا يعطش.

وسنظل ضيوف ذلك الملك العظيم، حتى نصل إلى ملكوته الأبدي، كما وصل إخوة يوسف المتعَبون إلى بيته الملكي، فأطعمهم وأكرمهم، مع أنهم سبق أن ألقوه في بئر! ونحن نسير في برية هذه الحياة، نتعب فنستلقي في إرهاق. فيجيء ملاك الرب ويمسُّنا، فإذا الطعام والشراب مهيئان بيد الملك نفسه، ونسمع التشجيع: «قُم وكُل، لأن المسافة كثيرة عليك» (1مل 19: 5، 7). فهنيئاً لكل من يقبل دعوة الملك الكريم ويأكل دوماً على مائدته الروحية السماوية.

2 - الله يحمي ضيوفه: يحمي القصر الملكي كل من يلوذ به. إنه يقوم بعمل «مدن الملجأ» التي أمرت شريعة موسى القاتل سهواً، عن غير عمد، أن يحتمي فيها حتى ينظر القضاة أمره، ويعلنون براءته.

وقد حددت الشريعة ست مدن للملجأ ليهرب إليها كل من قتل نفساً سهواً (العدد 35: 15). وكان أولياء الدم يجيئون ليطلبوا دم القتيل، فإذا أثبت التحقيق أن القاتل لم يقصد أن يقتل، كان القضاة يحكمون بأن يقضي القاتل سهواً أيامه في مدينة الملجأ إلى أن يموت رئيس الكهنة الذي تم القتل في عهده. وقتها يرجع القاتل سهواً إلى بلده الأولى، ولا يتعرّض له أهل القتيل بأذى.

وعندما كان عدد الشعب قليلاً كانت مدن الملجأ الست كافية للجوء. لكن بعد أن زاد عدد السكان، اضطروا أن يستعملوا خيام الرعاة كمدن ملجأ، فكان الذي يقتل نفساً سهواً يهرب إلى خيمة الراعي، فيجد الطعام والأمان، بينما يقف أعداؤه خارج الخيمة، لا يقدرون على قتله. إنه يراهم ويرونه، ولكنه في ضيافة الراعي في أمان.

فلنأتِ تائبين، لاجئين إلى الملك العظيم والمضيف الكريم والراعي الصالح لنجد عنده الغفران والأمان والشبع والحماية. إنه الملجأ الذي جاد بالدم. فلنجتهد في مدحه بالقلب والفم. إنه المسيح ملجأنا، الذي نركض إليه ونتمنَّع (أم 18: 10). كلنا كغنم ضللنا، لكنه حمل إثم جميعنا.

كان المرنم تشارلس وسلي يتطلع من نافذة غرفته في يوم شديد البرد، تساقطت ثلوجه، وإذا عصفور «أبي الحن» يندفع إلى الداخل، إلى حضن تشارلس وسلي، وهو مبتل مقرور. فأخذه المرنم المشهور وقربه من المدفأة وجفف ريشه، حتى دفئ واستراح. وعندما هدأت العاصفة أطلقه.. ورأى وسلي نفسه في عصفور «أبي الحن» فكتب الترنيمة التي تقول:

من يسوع المعتمَد لاجئاً أرجو النجاة
بينما الأرياح قد غمرتني بالمياه
أعطني الستر الحصين ريثما يأتي الحِمام
واهدني المينا الأمين خاتماً لي بالسلام

3 - الله يحتفل بانتصار ضيوفه: القول «ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقيَّ» (آية 5أ)، يرسم صورة الملك الذي انتصر في حربه مع أعدائه، فجلس يحتفل بالنصر مع كبار رجال دولته حول وليمة ملكية، وقد قيّد أعداءه الذين أسرهم وربطهم إلى أعمدة القصر الملكي. فيأكل الظافر ورجاله أمام مضايقيه المأسورين الذين لا يقوون على مضايقته.

وفي القول «ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقيَّ» معنى الانتصار بنعمة ربنا على الشيطان خصمنا الذي يجول يزأر ملتمساً من يبتلعه. وهو لا يبتلع إلا من يستمعه ويستسلم له. أما الذي يرفض إغواءه فهو المنتصر الذي يعطيه الرب امتياز الجلوس في محضره، يأكل من المائدة الروحية، وقد تقيَّد أعداؤه أمامه، عاجزين عن أن يؤذوه.

إن كنت تلوذ بالله وتطيع وصاياه، سيُشبعك من دسم نعمته، ويقيِّد عدوَّك فلا يؤذيك، ويطرح الشيطان تحت قدميك. إن كان الله معك فمن عليك؟ إن قام عليك جيش فلا تخف، بل اطمئن. إنهم لن يقدروا أن ينالوا منك، ولن يؤذوك، لأن الرب ينصرك ويحفظك، ويرتب قدامك مائدة تجاه مضايقيك العاجزين عن إيقاع الأذى بك. «لا تخف، بل تكلم ولا تسكت، لأني أنا معك، ولا يقع بك أحد ليؤذيك» (أع 18: 9، 10).

والقول الكريم: «ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقيَّ» يعني التمتع بوليمة عند الراعي المنتصر، الذي كان أحياناً يرعى أغنامه في مراعٍ خضر، ولكن في أرض بها حيات مختبئة في شقوق الصخور، حيث ترعى أغنامه العاجزة عن حماية نفسها. فكان الراعي الحكيم المختبر يغلي الماء ويصبه في شقوق الصخور فتموت الحيات، وترعى الأغنام في اطمئنان، لأن الراعي رتب لها مائدة تجاه مضايقيها! صحيح إن «من يمسكم يمس حدقة عينه» (زك 2: 8). وضمير الغائب في كلمة «عينه» قد يعود على العدو، وقد يعود على الله. فإن كان يعود على العدو يكون المعنى أن العدو الذي يمسنا يمس حدقة عين نفسه، فيؤذي نفسه، كالثور الذي يرفس مناخس. ولا بد أن يقع العدو الماكر في الحفرة التي يحفرها لمحبي الله، حتى لو كان ماكراً مكر الحيات. وإن كان ضمير الغائب في كلمة «عينه» يعود على الله، فيكون المعنى أن من يمسنا يمس حدقة عين الله، الذي في كل ضيقنا يتضايق وملاك حضرته يخلّصنا (إش 63: 9). وهيهات للعدو الأحمق أن يحقق مقاصده!

ما أكرم رحمة الله! إنه يرتب لنا المائدة تجاه مضايقينا، ويعجزهم عن أن يضايقونا. وعندما يقصدون بنا الشر يحوِّل شرَّهم إلى خير.

4 - الله يكرم ضيوفه: «مسحت بالدهن رأسي. كأسي ريّا» (آية 5ب). فهذا المضيف الكريم لا يطعمنا فقط، بل يمسح رؤوسنا بالدهن، ويملأ كؤوسنا حتى تفيض!

(أ) **يكرمه بالعطور**: كان المضيف الغني الكريم عندما يريد أن يكرم ضيفاً عزيزاً، يصبُّ دهوناً عطرية على رأسه، فتفيح الرائحة الذكية على الضيف وعلى جميع الحاضرين. وفي هذا قال المرنم للملك: «أحببتَ البر وأبغضتَ الإثم. من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج» (مز 45: 7). والمضيف يريد بذلك أن يقول: إنك ضيف شرف. أنت معزّز محبوب مكرَم. وياله من شرف يمنحه الله للمؤمن الذي يحبه!

والمسح بالدهن إشارة إلى مسحة الروح القدس، كما يقول الرسول يوحنا: «أما أنتم فلكم مسحة من القدوس» (1يو 2: 20). وشرط الحصول على هذه المسحة هو التسليم الكامل لله، فالرب يعطي الروح القدس للذين يطيعونه (أع 5: 32). ونحن نحتاج إلى مسحة من الروح القدس في مطلع كل يوم جديد، لأننا لا نقدر أن نقوم بواجباتنا الروحية بغير ذلك. فلنلجأ إلى الله في مطلع كل يوم ليمسح عقولنا وقلوبنا بمسحة الروح القدس لنتمكن من القيام بخدمته كما يجب.

وكما كان المسح بالدهن العطر يجهز الضيف المكرم للطعام، هكذا يجهزنا روح الله لأن نتكئ في لوليمة السماوية الأبدية عندما يجيء المسيح ثانية للذين يحبونه.

(ب) **يملأ كأسه**: وكان المضيف يكرم الضيف العزيز بأن يأمر بملء كأس شرابه كلما فرغ، ليظل كأس الضيف ملآن دائماً. وهذا يعني أن الله يعطي الاحتياج وما هو أكثر من ذلك. وفي هذا نذكر القول الرسولي عن الله «الذي لم يشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء!» (رو 8: 32). والكأس الممتلئ الفائض هو نتيجة طبيعية لامتلائنا من روح الله، فعندما حلّ الروح القدس على التلاميذ فاض كأس فرحهم حتى ظن الحاضرون أنهم سكارى، وما هم سكارى بخمر العالم، إنما لأنهم امتلأوا بروح الله، ففاض كأس فرحهم على سامعيهم، فآمن في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس، ووجدوا خلاصهم الأبدي في المسيح.

5 - يكلف الله ملاكين ليحرسا ضيفه: «إنما خيرٌ ورحمةٌ يتبعانني كل أيام حياتي» (آية 6أ). فالذي يجلس على مائدة الملك يتبعه ملاكان حارسان هما الخير والرحمة. وكان اليهود يعتقدون أن المؤمن الحقيقي يسير في صحبة هذين الملاكين الحارسين. وليس هناك خير ولا رحمة أعظم من صحبتنا للراعي الصالح، وهو يهدينا في سبل البر ويسير معنا في وادي ظل الموت، كل أيام حياتنا.

ويبدأ المرنم هذه العبارة بكلمة «إنما» وهي تفيد التأكيد. فلا شك أن الخير يتبع ضيف الملك، كما أن الرحمة تدركه. وما أعظم الفرق بين حالة ضيف الملك وحالة عدوّه، فالأشرار يطاردهم ملاك الرب (مز 35: 6) ورجل الظلم يصيده الشر إلى هلاكه (مز 140: 11).

6 - يقيم الضيف في بيت الله: «وأسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام» (آية 6ب). يرحب المضيف الكريم بضيفه الذي أكل على مائدته ليقيم في قصره دائماً. ولا شك أن المعنى المقصود معنى روحي، فلا إنسان يسكن في بيت العبادة كل أيام حياته، ولكن المعنى هو أن يصبح قلب الإنسان هيكلاً للرب، فيكون كنيسة حية متحركة، يرى الناس المسيح فيه، ويسمعون كلمة الله منه، ويكون الشغل الشاغل له هو عبادة الرب، فيختبر اختبار موسى الذي كان وجهه يلمع لأنه مكث طويلاً في حضرة الرب (خر 34: 30، 31). وعندها يقول لله: «ما أكرم رحمتك يا الله، فبنو البشر في ظل جناحيك

يحتمون. يَروَوْن من دسم بيتك، ومن نهر نِعمك تسقيهم» (مز 36: 7، 8). وقد قال المسيح: «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد. أما الابن فيبقى إلى الأبد» (يو 8: 35).

وهناك معنى روحي آخر للسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام، وهو الأبدية السعيدة التي للمؤمن في محضر الله. لقد نقلنا المرنم في هذه الآية الأخيرة من العالم الحاضر إلى العالم الآتي، فنسمع القول: «أنا أمضي لأُعدَّ لكم مكاناً.. حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.. أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو 14: 2، 3، 6). «وهكذا نكون كل حين مع الرب» (1تس 4: 17). وهذا ما يقوله داود: «جسدي أيضاً يسكن مطمئناً، لأنك لن تترك نفسي في الهاوية.. تعرّفني سبيل الحياة. أمامك شبع سرور. في يمينك نِعَمٌ إلى الأبد» (مز 16: 9-11).

ستتمتَّع بكل بركات مزمور الراعي إن قلتَ عن اختبار: «الرب راعيَّ». فما نوع علاقتك به؟

اَلْمَزْمُورُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

لِدَاوُدَ. مَزْمُورٌ

1لِلرَّبِّ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا، الْمَسْكُونَةُ وَكُلُّ السَّاكِنِينَ فِيهَا، 2لأَنَّهُ عَلَى الْبِحَارِ أَسَّسَهَا، وَعَلَى الأَنْهَارِ ثَبَّتَهَا.

3مَنْ يَصْعَدُ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، وَمَنْ يَقُومُ فِي مَوْضِعِ قُدْسِهِ؟ 4اَلطَّاهِرُ الْيَدَيْنِ، وَالنَّقِيُّ الْقَلْبِ، الَّذِي لَمْ يَحْمِلْ نَفْسَهُ إِلَى الْبَاطِلِ، وَلاَ حَلَفَ كَذِباً. 5يَحْمِلُ بَرَكَةً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ وَبِرّاً مِنْ إِلَهِ خَلاَصِهِ. 6هَذَا هُوَ الْجِيلُ الطَّالِبُهُ، الْمُلْتَمِسُونَ وَجْهَكَ يَا يَعْقُوبُ. سِلاَهْ.

7اِرْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ، وَارْتَفِعْنَ أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ، فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ. 8مَنْ هُوَ هَذَا مَلِكُ الْمَجْدِ؟ الرَّبُّ الْقَدِيرُ الْجَبَّارُ الرَّبُّ الْجَبَّارُ فِي الْقِتَالِ! 9اِرْفَعْنَ أَيَّتُهَا الأَرْتَاجُ رُؤُوسَكُنَّ وَارْفَعْنَهَا أَيَّتُهَا الأَبْوَابُ الدَّهْرِيَّاتُ فَيَدْخُلَ مَلِكُ الْمَجْدِ؟ 10مَنْ هُوَ هَذَا مَلِكُ الْمَجْدِ! رَبُّ الْجُنُودِ هُوَ مَلِكُ الْمَجْدِ. سِلاَهْ

مجيء ملك المجد

استولى الملك داود على حصن صهيون بعد أن هزم اليبوسيين، لا بقوته الذاتية، لكن بنصر من عند الله، فأُقيمت عليه مدينة أورشليم. وأُطلق عليه اسم «مدينة رب الجنود» (إش 8: 18 و18: 7). وكان يجب أن الله، المالك الحقيقي للحصن، يدخل مدينته مرموزاً إليه بتابوت العهد، فقرَّر داود أن ينقل التابوت إلى العاصمة في خيمة جهَّزها له، وكان ذلك أعظم أيام حياة داود. وفي هذه المناسبة السعيدة كتب داود هذا المزمور.

وتابوت العهد صندوق من خشب السنط المغشَّى بالذهب، وهو من أهم مقدسات الهيكل اليهودي، لأنه كان يحتوي على لوحي الحجر المكتوب عليهما الوصايا العشر (خر 25: 16)، وقسط ذهبي فيه بعض المنّ الذي كان بنو إسرائيل يأكلونه في صحراء سيناء مدة أربعين سنة (عب 9: 4)، كما كان به عصا هارون اليابسة التي اخضرَّت وأفرخت (عد 17: 10). وكان التابوت رمزاً لحضور الله في هيكله (خر 40: 34)، ولإعلاناته لشعبه (خر 25: 22)، ولعنايته بهم (عد 10: 11، 33). كما كان رمزاً للكفارة، ففي عيد الكفارة كان هارون ينضح على غطاء تابوت العهد سبع مرات من الدم بإصبعه، أولاً عن نفسه، ثم عن الشعب ليتطهَّروا من جميع خطاياهم (لا 16: 2–19).

وكان كهنة بني إسرائيل يحملون تابوت العهد أثناء سفرهم في صحراء سيناء. ولما دخلوا أرض الميعاد استقر التابوت في الجلجال (يش 4: 19) بعدها نقلوه إلى موقع متوسط في شيلوه (يش 18: 1)، ثم إلى بيت إيل (قض 20: 18). ولما ارتدّ بنو إسرائيل عن عبادة الرب هزمهم الفلسطينيون، وأخذوا منهم تابوت العهد إلى عاصمتهم أشدود ثم إلى عقرون مدة سبعة أشهر. ولما أوقع الله بهم الضربات أعادوا التابوت إلى قرية بيتشمس على الحدود الشمالية الغربية لأرض سبط يهوذا (1صم 6). ثم نُقل التابوت إلى بيت أبيناداب في قرية يعاريم حيث بقي عشرون سنة (1صم 7). وفي سنة 1003 ق م استولى داود على حصن صهيون من اليبوسيين، فأراد أن ينقل التابوت إليه على عربة تجرها الثيران، مع أن الشريعة نصّت أن يحمل الكهنة التابوت على أكتافهم. ولعل داود أراد أن ينقل التابوت بطريقة حديثة، يُدخل فيها تطوُّرات العصر،

وهو يظن أنه يكرم الله. لكن الله وجَّهه الوجهة السليمة، وإن كان ثمن ذلك التوجيه كبيراً، فقد مات «عُزّة» بن أبيناداب وهو يحاول أن يسند التابوت على العربة لما فزعت الثيران (2صم 6). فترك داود التابوت في بيت عوبيد أدوم، وهو قريب من مكان الحادثة. ثم عاد بعد ثلاثة شهور لينقله إلى حصن صهيون بالطريقة الصحيحة. ومن هذا نتعلم أن الله يريدنا أن نصغي إلى تعليماته، ولا نتبع أهواءنا الشخصية، وأن نسيّر حياتنا ونضبطها بالطريقة التي يريدها هو (2صم 6 و1أخ 15).

كان تابوت العهد رمزاً لوجود الرب في وسط شعبه، فعند دخول التابوت مدينة أورشليم هتف الكل بابتهاج للرب مالك الأرض وما عليها. فلترتفع الأبواب ليدخل «ملك المجد» وليكن العابدون على مستوى العبادة.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – الله المالك (آيتا 1، 2)

ثانياً – الله المعبود (آيات 3–6)

ثالثاً – الله المنتصر (آيات 7–10)

أولاً ـ الله المالك

(آيتا 1، 2)

1 ـ ملكية الله شاملة: «للرب الأرض وملؤها. المسكونة وكل الساكنين فيها» (آية 1) .هو مالك الأرض وما عليها من بشر وطير وحيوان ونبات. هي له بحكم أنه خلقها، فهو الذي «كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو 1: 3). وهو الذي يضمن بقاء العالم، فهو «حامل كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب 1: 3) و«منه وبه وله كل الأشياء» (رو 11: 36). لذلك قال: «فإن لي كل الأرض» (خر 19: 5) وقال موسى للشعب: «للرب إلهك السماوات وسماء السماوات والأرض وكل ما فيها» (تث 10: 14). فالرب يملكنا وكل ما عندنا، ونحن مجرد وكلاء على ما أعطانا من بنين ومال ووقت وصحة وذكاء ودرجات علمية. ولا يقدر أحدٌ أن يقول عن شيء إنه ملكه، لأنه ملك الله.

2 ـ ملكية الله قانونية: «لأنه على البحار أسّسها وعلى الأنهار ثبّتها» (آية 2).

(أ) الله هو الخالق: «على البحار أسَّسها». «قال الله: لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً» (تك 1: 9، 10). وقال المرنم إن الله هو «الباسط الأرض على المياه، لأن إلى الأبد رحمته» (مز 136: 6) ويقول إمام الحكماء عن الرب: «وضع للبحر حدّه، فلا تتعدى المياه تُخمه» (أم 8: 29).

(ب) الله هو الضابط والضامن: «على الأنهار ثبّتها». خلقها ويضمن استمرارها. «لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخُلقت» (رؤ 4: 11). «به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع 17: 28).

ثانياً ـ الله المعبود

(آيات 3-6)

هذا الإله العظيم، الخالق، الضابط الكل، جديرٌ بعبادتنا. وعلى العابدين أن يكونوا على مستوى العبادة، فعبادة الرب العظيم تطالبنا بالتواضع، وعبادة الإله القدوس تستلزم التقوى والقداسة. وفي هذه الآيات الأربع نجد أربعة أوصاف للعبادة:

1 ـ العبادة امتياز: «من يصعد إلى جبل الرب، ومن يقوم في موضع قدسه؟» (آية 3). العبادة امتياز لأنها «صعود» وارتفاع إلى جبل الرب. وهي «قيام» في حضرة الله في موضع قدسه. والصعود صعب لأنه تسلُّق يحتاج إلى مجهود وإرادة. والقيام يحتاج إلى صحو وانتباه وتصميم وعزم. أما الهبوط والجلوس فسهلان! قال المسيح: «واسعٌ الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، قليلون هم الذين يجدونه» (مت 7: 13، 14).

تتطلب حياتنا الروحية ارتفاعاً فوق مستوى العالم. عندما صلى موسى لينصر الله شعبه على عدوه «عماليق» كان يجب أن يرفع يديه إلى الله باستمرار، لأنه عندما كان يخفض يديه كان العدو يغلب! ولما أصابه الإرهاق جاءه هارون وحور ودعما يديه، الواحد من هنا والآخر من هناك، فظلت يداه مرفوعتين بثبات إلى غروب الشمس وانتصر قومه (خر 17: 11، 12).

2 ـ العبادة مسؤولية: «الطاهر اليدين، والنقي القلب، الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذباً» (آية 4). لقد خاف داود لما رأى الله يقتل «عُزة» لأنه تجرأ ولمس تابوت العهد بيديه، الأمر الذي كانت الشريعة تحرمه. وأدرك داود ضرورة الطاعة والتوافق مع المشيئة الإلهية. فالعبادة امتياز، لكنها أيضاً مسؤولية تتطلب منا ثلاثة أشياء:

(ا) طهارة السلوك الظاهر: «الطاهر اليدين» (آية 4أ) الذي لا يأخذ ما ليس حقه، ولا يرتكب عنفاً، فيقول: «يكافئني الرب حسب بري. حسب طهارة يديَّ يردُّ لي» (مز 18: 20).

(ب) نقاوة القلب من الداخل: «النقي القلب» (آية 4ب) صاحب النوايا الحسنة، الذي ينطبق عليه وصف المسيح: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت 5: 8).

(ج) طهارة الفكر والكلام: «الذي لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذباً» (آية 4ج). هو الأمين للرب، الذي يرفع يديه ويوجّه فكره باستقامة للسماء، تاركاً الأوثان الباطلة، وطالباً أولاً ملكوت الله وبره، وتابعاً كل ما يُرضي الله. فإذا حلف أو وعَد يَصْدُق في ما يَعِد به، لأن الذي يقضي عمره في الكذب لا يستطيع أن يتمتع بالشركة مع الله الحق. وقد وصف إمام الصابرين أيوب سلوكه الصالح بقوله: «إن كنتُ قد سلكتُ مع الكذب، أو أسرعَت رجلي إلى الغش، ليَزِنِّي في ميزان الحق فيعرف الله كمالي. إن حادت خطواتي عن الطريق وذهب قلبي وراء عينيَّ أو لصق عيبٌ بِكفيّ، أزرع وغيري يأكل» (أي 31: 5-7).

3 ـ العبادة بركة: «يحمل بركة من عند الرب وبراً من إله خلاصه» (آية 5). يبارك الرب العابد المخلص كما بارك بيت عوبيد أدوم لما بقي فيه تابوت عهد الرب ثلاثة أشهر، حتى سمع داود بعظمة تلك البركة. وما أجمل قول العذراء القديسة مريم: «أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لو 1: 53). والعابد المخلص ينال براً، ويتحقق

معه ما قيل في إبراهيم خليل الله إنه آمن بالرب فحسبه له براً (تك 15: 6) ويصدق فيه قول المسيح: «طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبعون» (مت 5: 6).

4 - العبادة مستمرة: «هذا هو الجيل الطَّالِبُه، الملتمسون وجهك يا يعقوب» (آية 6). الذي يطلبه باستمرار. والذي يطلبه هو الذي يقول: «فرحتُ بالقائلين لي: إلى بيت الرب نذهب» (مز 122: 1). ويسكن في بيت الرب إلى مدى الأيام (مز 23: 6). والذي يلتمس وجهه هو الذي يطلبه بكل قلبه، سواء كان في البيت أو محل العمل، أو مخدع الصلاة. هذا الطالب الملتمس يشبه «يعقوب» أبا الأسباط كما يجب أن يكون، وهو «إسرائيل الله» (غل 6: 16).

فلنطلب الرب ونلتمس وجهه دوماً في شوق. قد يقضي عالِمٌ حياته يطوِّر آلة معينة ليقدم خدمة أفضل للبشر. فهل يكون المؤمن أقل منه غيرةً؟ على المؤمن أن يقضي حياته في تنمية وتعميق حياته الروحية بأن يطلب الرب ويلتمس وجهه، فتكون حياته مباركة له وسبب بركة لغيره، كما قال الرب لإبراهيم: «أباركك.. وتكون بركة.. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تك 12: 2، 3).

ثالثاً - الله المنتصر

(آيات 7-10)

1 - يدخل الملك وسط الترحيب: «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارتفعن أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد» (آية 7). وصل التابوت أبواب أورشليم، فقال المرنم: «ارتفعن أيتها الأبواب الدهريات». والأرتاج هي بوابات المدينة التي يجب أن ترتفع لأنها أقل ارتفاعاً من أن يدخل منها ملك المجد. كما يجب أن تنفتح على آخرها لتتسع للمجد الإلهي. ولتوقف كل مقاومة تعطل دخول ملك المجد الذي يستحق الترحيب الكامل. هذه الأبواب «دهريات» قديمة، ولكن لما تنفتح لملك المجد يمنحها بركات جديدة.

وهذه الآية نبوة عن دخول المسيح الانتصاري إلى أورشليم يوم الأحد السابق للقيامة، عندما هتفت الجماهير له: «أوصنا (يا رب خلِّصنا). مبارك الآتي باسم الرب. مباركة مملكة أبينا داود الآتية باسم الرب. أوصنا في الأعالي» (مر 11: 9، 10).

واليوم يجب أن نرحب بملك المجد ليدخل ويملك على حياتنا، فيكون كل ما عندنا ملكاً له وتحت أمره. ليقُل كل واحد منا لنفسه: يا باب قلبي، ارتفع واتَّسع ليدخل ملك المجد، فلن أترك اليوم شيئاً يعطل دخول المسيح إلى قلبي.

2 - يدخل الملك منتصراً: «من هو هذا ملك المجد؟ الرب القدير الجبار. الرب الجبار في القتال» (آية 8). له رنّم شعبه المفدي في نشيد يقول مطلعه: «الرب قوَّتي ونشيدي، وقد صار خلاصي. هذا إلهي فأمجِّده، إله أبي فأرفّعه» وتقول خاتمته: «الرب يملك إلى الدهر والأبد» (خر 15: 2، 18).

رأينا في مزمور 22 نبوات عن المسيح المصلوب المُقام قيلت قبل الصليب بألف سنة، وقد تحققت كلها. انتصر المسيح على الموت وترك قبره فارغاً. كل الأنبياء ذاقوا الموت، وسيقومون في القيامة في اليوم الأخير ليقفوا أمام المسيح القاضي العادل. لكن المسيح هو الوحيد الذي قام من قبره منتصراً، وترك قبره فارغاً، وسيعود إلى أرضنا ليتولى الحكم. إنه «الرب القدير الجبار. الرب الجبار في القتال». قتل الموت بقيامته، وهزم إبليس وأشهره جهاراً (كو 2: 15).

3 - يدخل الملك ممجداً: يعود المرنم يكرر دعوته وسؤاله: «ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات فيدخل ملك المجد! من هو هذا ملك المجد؟ رب الجنود هو ملك المجد» (آيتا 9، 10). ليس هو الملك المنتصر فحسب، لكنه «رب الجنود» الذي قال عنه داود لجليات الجبار: «أنت تأتي إليَّ بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتي إليك باسم رب الجنود» (1صم 17: 45). وجنوده هم كل الخلائق (تك 2: 1). وهم شعبه الذين اختارهم (خر 7: 4). وهم الشمس والقمر والنجوم (تث 4: 19 و17: 3). وهم الملائكة (لو 2: 13). إنه رب المجد، صاحب كل سلطان في السماء والأرض.

قد يتساءل إنسان: كيف أدخل السماء وأمثُل في حضرة الله ويداي ملوَّثتان بالخطية؟ والإجابة: إنك تضع ثقتك في المسيح صاحب اليدين الطاهرتين المثقوبتين، الذي يعطيك قلباً جديداً إن كنت تضع ثقتك فيه، فتمثُل في حضرة الله بفرح، لأنه يستر عيوبك ويعطيك القبول أمام الله بفضل فدائه.

فلتتسع قلوبنا لدخول رب الجنود، ولنرتل ترتيلة فرح عندما يدخل حياتنا ويمتلكها!

اَلْمَزْمُورُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ

لِدَاوُدَ

1إِلَيْكَ يَا رَبُّ أَرْفَعُ نَفْسِي. 2يَا إِلَهِي، عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ فَلاَ تَدَعْنِي أَخْزَى. لاَ تَشْمَتْ بِي أَعْدَائِي. 3أَيْضاً كُلُّ مُنْتَظِرِيكَ لاَ يَخْزَوْا. لِيَخْزَ الْغَادِرُونَ بِلاَ سَبَبٍ. 4طُرُقَكَ يَا رَبُّ عَرِّفْنِي. سُبُلَكَ عَلِّمْنِي. 5دَرِّبْنِي فِي حَقِّكَ وَعَلِّمْنِي، لأَنَّكَ أَنْتَ إِلَهُ خَلاَصِي. إِيَّاكَ انْتَظَرْتُ الْيَوْمَ كُلَّهُ. 6اذْكُرْ مَرَاحِمَكَ يَا رَبُّ وَإِحْسَانَاتِكَ، لأَنَّهَا مُنْذُ الأَزَلِ هِيَ. 7لاَ تَذْكُرْ خَطَايَا صِبَايَ وَلاَ مَعَاصِيَّ. كَرَحْمَتِكَ اذْكُرْنِي أَنْتَ، مِنْ أَجْلِ جُودِكَ يَا رَبُّ.

8اَلرَّبُّ صَالِحٌ وَمُسْتَقِيمٌ، لِذَلِكَ يُعَلِّمُ الْخُطَاةَ الطَّرِيقَ. 9يُدَرِّبُ الْوُدَعَاءَ فِي الْحَقِّ، وَيُعَلِّمُ الْوُدَعَاءَ طُرُقَهُ. 10كُلُّ سُبُلِ الرَّبِّ رَحْمَةٌ وَحَقٌّ لِحَافِظِي عَهْدِهِ وَشَهَادَاتِهِ. 11مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ يَا رَبُّ اغْفِرْ إِثْمِي لأَنَّهُ عَظِيمٌ. 12مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الْخَائِفُ الرَّبَّ؟ يُعَلِّمُهُ طَرِيقاً يَخْتَارُهُ. 13نَفْسُهُ فِي الْخَيْرِ تَبِيتُ، وَنَسْلُهُ يَرِثُ الأَرْضَ. 14سِرُّ الرَّبِّ لِخَائِفِيهِ وَعَهْدُهُ لِتَعْلِيمِهِمْ. 15عَيْنَايَ دَائِماً إِلَى الرَّبِّ لأَنَّهُ هُوَ يُخْرِجُ رِجْلَيَّ مِنَ الشَّبَكَةِ.

16اِلْتَفِتْ إِلَيَّ وَارْحَمْنِي، لأَنِّي وَحْدٌ وَمِسْكِينٌ أَنَا. 17أُفْرُجْ ضِيقَاتِ قَلْبِي. مِنْ شَدَائِدِي أَخْرِجْنِي. 18انْظُرْ إِلَى ذُلِّي وَتَعَبِي، وَاغْفِرْ جَمِيعَ خَطَايَايَ. 19انْظُرْ إِلَى أَعْدَائِي لأَنَّهُمْ قَدْ كَثُرُوا، وَبُغْضاً ظُلْماً أَبْغَضُونِي. 20احْفَظْ نَفْسِي وَأَنْقِذْنِي. لاَ أُخْزَى لأَنِّي عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ. 21يَحْفَظُنِي الْكَمَالُ وَالاسْتِقَامَةُ، لأَنِّي انْتَظَرْتُكَ. 22يَا اللهُ افْدِ إِسْرَائِيلَ مِنْ كُلِّ ضِيقَاتِهِ.

علّمني ودرّبني

هذا المزمور يطلب فيه المرنم الغفران والإرشاد، يبدأه ويختمه بالصلاة، لأنه متواضع يعرف أنه أخطأ، ونتيجة لـــذلك مرّ بظروف قاسية، وتحيَّر ولم يعرف كيف يتصرَّف، فلجأ إلى ربّه يطلب المغفرة والهداية اليومية، ويسأل الله أن يعرّفـــه الحق ويعلّمه ويدرّبه فيه.

وكم نشكر الله لأنه في محبته يغفر أخطاءنا، ويهدينا بكلمته وبروحه، لأنه أبونا الذي يهتم بنا، وقد تنازل وجعلنا شعبه الذي ينتمي إليه. ومهما كانت أخطاؤنا فإنه يغفرها حالما نعترف بها. فإن كنا غير أمناء فهو يبقى أميناً، لن يقدر أن ينكـــر نفسه ولا محبته لنا (2تي 2: 13).

وهذا المزمور أبجدي، تبدأ كل آية منه بأحد حروف الأبجدية العبرية.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – موضوعات للصلاة (آيات 1–7)

ثانياً – الله يوضّح طرقه (آيات 8–15)

ثالثاً – الله ينجي من الضيق (آيات 16–22)

أولاً ـ موضوعات للصلاة

(آيات 1-7)

1 ـ الصلاة هي رفع النفس إلى الله: «إليك يا رب أرفع نفسي» (آية 1). الصلاة ارتفاعٌ بالنفس وسموٌّ بها، فالمصلي الذي يركع أمام الله في تواضع حقيقي، هو الذي يرفعه الله. وكلما تواضعنا في حضرته يرفعنا في حينه (1بط 5: 6). إن كانت خطايانا أو صعوبات حياتنا قد نكست رؤوسنا، فلنلجأ إلى الله مصلّين ليرفعنا، مطيعين النصيحة: «إن أحسنت أفلا رفعٌ؟» (تك 4: 7). فلا تسمح للظروف أن تُسقِط وجهك غيظاً أو يأساً، بل «ارفعوا عيونكم إلى العلاء» (إش 40: 26 و51: 6).

قال الرسول بولس لما ظلمه اليهود: «إلى قيصر أنا رافعٌ دعواي» (أع 25: 11) فرفع قضيته إلى قاضٍ أكبر طلباً للعدالة. وهكذا يجب أن نرفع دعوانا إلى الله، لأننا كلما صلينا ارتفعنا فوق الصعاب. ربما نشكو آلامنا لأصحابنا، أو نتذمر بسببها داخل نفوسنا، لكننا سرعان ما نكتشف أن عقولنا قاصرة، وأن أصدقاءنا عاجزون. فلنرفع أنفسنا إلى الرب، ولنوجّهها الوُجهة السليمة.

عندما وقف المسيح أمام قبر لعازر، كان جسد لعازر قد تعفَّن، وكانت أختاه تبكيان، واليهود يراقبون المسيح ليروا ما سيفعله. ولكن المسيح حوَّل النظر عن هذا كله، ورفع عينيه إلى السماوات وقال: «أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي» (يو 11: 41، 42). وهكذا يجب أن تكون الصلاة! «لنرفع قلوبنا وأيدينا إلى الله في السماوات» (مرا 3: 41).

2 ـ دعاءٌ لكيلا يشمت العدو: «يا إلهي عليك توكلت، فلا تدعني أخزى. لا تَشْمتْ بي أعدائي. أيضاً كل منتظريك لا يَخْزَوا. ليخْزَ الغادرون بلا سبب» (آيتا 2، 3). لا يرى العدو الغادر إلا المنظور، فيصيبه الخزي والخجل، لأنه يبني طمأنينته على الماديات المنظورة فقط. أما المؤمن الصادق فإنه لا يخزى أبداً لأنه يؤمن بالله الذي يُحيي الموتى، ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة، فيتقوَّى معطياً مجداً لله، متيقّناً أن ما وعد الله به هو قادر أن يفعله (رو 4: 17–20).

ويدرك المرنم أن لأفضل الناس أعداءً يشمتون بهم في مصائبهم، ولكنه يدرك أيضاً ضرورة الصلاة لأجلهم. كل مؤمن مُصاب (يو 16: 33) لأن الذي يحبه الرب يؤدّبه (أم 3: 12 وعب 12: 6)، ولأن خِفّة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا ثقل مجد أبدياً (2كو 4: 17)، ولأن رئيس هذا العالم يقاوم المؤمنين (يو 14: 30)، ولأن جسد المؤمن يشتهي ضد روحه (غل 5: 17). وكلما رأى العدو الغادر مصائب المؤمن شمت به، سواء كانت المصائب بسبب عيبٍ في المؤمن، أو لغير ذلك. ويطلب المرنم من الله أن يجنّبه هذه الشماتة، كما قال داود في نشيد الرثاء: «الظبي (شاول) يا إسرائيل مقتولٌ على شوامخك. كيف سقط الجبابرة؟ لا تخبروا في جَتّ! (عاصمة فلسطين). لا تبشّروا في أسواق أشقلون! (عاصمة أخرى)، لئلا تفرح بنات الفلسطينيين، لئلا تشمت بنات الغُلف» (2صم 1: 19، 20).

3 ـ دعاء لطلب الإرشاد: «طرقك يا رب عرّفني، سبلك علّمني، درّبني في حقك وعلمني، لأنك أنت إله خلاصي. إياك انتظرت اليوم كله» (آيتا 4، 5). وفي هاتين الآيتين أربع طلبات:

(أ) «**عرّفني**»: أعطني المعلومة، والمعرفة العقلية. قُل لي شيئاً أجهله. أعلن لي إرادتك. وهذه عرفة عامة للجميع، كقولك: «الله محبة».

(ب) «**علّمني**»: والتعلُّم خطوة أعمق من المعرفة. هي تخصيص المعرفة لنفسك، وهي الحكمة التي تطبّق في الحياة اليومية ما عرفتَه من الله وعنه، فيصبح واقعاً مُعاشاً كل يوم، كقولك: «الذي أحبّني» والاطمئنان إلى هذه المحبة.

(ج) «**درّبني**»: والتدريب خطوة أبعد من التعلّم. إنه ممارسة المعرفة التي تعلمناها، والوقوع في أخطاء تطبيقها، ثم تعلُّمنا من تلك الأخطاء. كمعرفتك أن الله محبة، ثم إدراكك أن الله يحبك، واطمئنانك لحب الله لك. ولكنك تقع في خطية الشك في هذه المحبة عندما تجوز في تجربة صعبة. ويطلب المرنم من الله أن يدربه حتى يقول: «إذا سقطتُ أقوم. إذا جلستُ في الظلمة فالرب نورٌ لي» (مي 7:8). فيتعلم ويتدرب بالتجربة والخطأ.

(د) «**علّمني**»: بعد خطوة التدريب بالتجربة والخطأ، يتعلم الإنسان كيف يكون أقوى إيماناً وأكثر طاعةً وأفضل استعداداً لخدمة الله، لأنه يكون قد تعلم بالمعرفة والتدريب ما ينفعه في مستقبله، فلا يسقط في ما سبق له أن سقط فيه، فيتحقق معه القول: «أدرّب نفسي ليكون لي دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس» (أع 24: 16). ولا يعود يحتاج للتوبيخ الرسولي القائل: «لأنكم إذ كان ينبغي أن تكونوا معلّمين لسبب طول الزمان (الذي مرّ عليكم منذ تعلَّمتم)، تحتاجون أن يعلّمكم أحدٌ ما هي أركان بداءة أقوال الله (أبجدية الإيمان المسيحي وبداياته الأولية).. أما الطعام القوي فللبالغين، الذين بسبب التمرُّن قد صارت لهم الحواس مدرّبة على التمييز بين الخير والشر» (عب 5: 12، 14).

وتحتاج عملية التعلُّم إلى صبر، فنتعلم ونخطئ، فنتعلم من خطئنا دون يأس، مردّدين مع المرنم: «إياك انتظرتُ اليوم كله» (آية 5ب). فإن علَّمك الله وأخطأت، فلا تيأس، بل انتظره ليعلّمك من جديد. أشكُرْه لأنه لا يُخزي منتظريه، وهو لا يطرد تلاميذه بسبب جهالتهم أو ضعف ذاكرتهم أو بطء إدراكهم أو غلاظة قلوبهم أو تقاعسهم عن التنفيذ، لكنه يعلّم ويدرّب مرة بعد مرة.

وانتظار الرب يعني توقُّع نوال طلباتنا منه، كما كان مرضى بركة بيت حسدا يتوقعون تحريك الماء في صبر وثقة، قائلين: «إنما لله انتظري يا نفسي لأن من قِبَله رجائي» (مز 62: 5).

4 ـ دعاء لطلب الرحمة: «اذكر مراحمك يا رب وإحساناتك لأنها منذ الأزل هي. لا تذكر خطايا صباي ولا معاصيَّ. كرحمتك اذكرني أنت من أجل جودك يا رب» (آيتا 6، 7). يظن المؤمن في وقت الضيق أن الله نسيه، فيلجأ إلى الصلاة ليذكِّر الله! وهذا يعني أن الشك قد بدأ يسيطر على مشاعره، ويهز ثقته، فيطلب رحمة الله التي لا تتغيّر. فهي منذ الأزل، وتدوم إلى الأبد (إر 2: 2 و31: 3). يطلبها لأنه خاطئ لا يصيب الهدف، ولأنه عاصٍ ثائر على قوانين الله. ولكنه يعلم أن المراحم الإلهية الغنية تغفر له ما سبق أن ارتكبه، وتطرح كل سلوك سيء في أعماق البحر «يعود يرحمنا، يدوس آثامنا، وتُطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم» (مي 7: 19). «فإنك طرحت وراء ظهرك كل خطاياي» (إش 38: 17) فتسمعه يؤكد لك: «لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد» (إر 31: 34).

لقد رفع داود صلاة طلب الرحمة، ومن بعده صلَّى اللص المصلوب التائب: «اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك» (لو 23: 42). ونحن لا نجرؤ على طلب الرحمة إلا اعتماداً على محبة الله الواضحة في الصليب.

ثانياً ـ الله يوضِّح طرقه

(آيات 8-15)

1 ـ بسبب صلاح الله: «الرب صالحٌ ومستقيم، لذلك يعلّم الخطاة الطريق. يدرّب الودعاء في الحق، ويعلّم الودعاء طرقه» (آيتا 8، 9). لا يستحق الخاطئ شيئاً صالحاً، لكن بسبب صلاح الله ونعمته يتنازل ليعلّم الخاطئ سبُل البر بالرغم من أنه لم يُصب الهدف. فإن كان الخاطئ التائب وديعاً بمعنى أنه متواضعٌ، راغبٌ في المعرفة، ويملك قابلية التعلُّم، فإن الله يدربه، ويزيد تعليمه، بالمعرفة العقلية والتدريب العملي، فيعرف كيف يعبد الله بالروح والحق، وكيف يحيا الحياة التي تُرضي الله وتمجده، ويفهم إرادة الله الصالحة. فإن كنت في حيرة لا تعرف المشيئة الإلهية في أمرٍ ما، فلتثق أن الله يريد أن يعلّمها لك. إن رغبتك في معرفة المشيئة الإلهية ناشئة عن عمل الروح القدس فيك، وعن تجاوبك مع عمل الروح القدس في داخلك، وعلى ذلك فلا بد أن الله سيعطيك هذه المعرفة.

2 ـ بسبب أمانة الله: «كل سبل الرب رحمة وحق لحافظي عهده وشهاداته» (آية 10). تبرهن كل معاملات الله أنه أمين لمواعيده، وأن مقاصده عامرةٌ بالمحبة لمن يثبتون في عهده (تك 17: 2–4) ويطيعونه (خر 19: 5). وكان تابوت العهد تجسيداً لعهد الله مع شعبه (عد 10: 33). وكان ناموس موسى «على لوحي العهد» دستور العهد القديم (تث 9: 9). و«الناموس بموسى أُعطى، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا» (يو 1: 17). والله يغمرنا برحمته فيغفر لنا، ويغمرنا بحقّه فيقوّمنا ويهدينا. بالرحمة «يردّ نفسي» وبالحق «يهديني إلى سبل البر» (مز 23: 3). رحمته تغفر وحقه يرشد.

3 ـ بسبب ضعف الإنسان: «من أجل اسمك يا رب اغفر إثمي لأنه عظيم» (آية 11). عندما فكر المرنم في صلاح الله وأمانته، اكتشف تقصيره، فطلب المغفرة، محتمياً في إعلان الله عن ذاته أنه إله الرحمة، كما سبق موسى وطلب: «اغفِر إثمنا وخطيتنا، واتَّخِذْنا مُلكاً» (خر 34: 9). ولا يمكن أن يرفض الرب نداء طالب الغفران، فهو الغفور للخاطئ المعترف.

4 ـ بسبب شوق الإنسان لمعرفة الله: «من هو الإنسان الخائف الرب؟ يعلّمه طريقاً يختاره. نفسه في الخير تبيت ونسله يرث الأرض. سِرُّ الرب لخائفيه، وعهده لتعليمهم. عيناي دائماً إلى الرب لأنه هو يُخرج رجليَّ من الشبكة» (آيات 12–15). والشبكة ترمز للتجربة، والرب يحفظ المؤمنين من السقوط فيها، ويسرع بإنقاذهم منها، وعلّمنا أن نصلي: «لا تُدخلنا في تجربة». وقد رأينا من بداية المزمور أن الرب يعلّم الذين يخافونه ويدرّبهم في طرقه التي يختارها لهم بنفسه (آية 12)، فيقولون: «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمالٍ صالحة قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف 2: 10). وهذا التعليم يجعلهم راغبين في مزيدٍ من التعلُّم، لأنهم يرون النجاح المادي الذي يمنحه لهم الرب، ويمنحه لنسلهم أيضاً (آية 13)، كما وعد إبراهيم (تك 15:7 و8) وكما وعد سائر شعبه (خر 20: 12 ومت 5: 5). كما أنهم يرون بركات الرب الروحية لهم، واهتمامه السري الخاص بهم في أنه يعلن لهم أسرار محبته وقوانين ملكوته وصدق عهوده (آية 14) لأنهم أصحاب قلوبٍ بسيطة نقية (مت 11: 25)، مثل إبراهيم الذي أعلن له الرب ما سيفعله بسدوم (تك 18: 17) وكما قال عاموس: «إن السيد الرب لا يصنع أمراً إلا وهو يعلن سرّه لعبيده الأنبياء» (عا 3: 7).

قال المسيح: «إن شاء أحدٌ أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي» (يو 7: 17). فكل من يريد أن يطيع الله يعلن الله له من تعاليمه ما لا يقدر العصاة أن يدركوه، ولهذا يتطلّع المرنم دوماً للرب قائلاً: «عيناي دائماً إلى الرب» واثقاً أنه سيُخرج رجليه من الشبكة (آية 15). وكان اليهود يطلقون اسمي «اليوعينيّ» (1أي 3: 23)

و«أليهو عيناي» (عز 8: 4) على أبنائهم، راجين أن يكونوا اسماً على مسمّى، بأن تكون عيونهم دائماً على الرب، يقولون مع المرنم: «إليك يا سيد يا رب عيناي، بك احتميت. لا تُفرِغ نفسي» (مز 141: 8).

ثالثاً - الله ينجّي من الضيق

(آيات 16-22)

1 - الخطية هي السبب الرئيسي للضيق: (آيات 16-18).

(أ) الخطية تُسبِّب الضيق الداخلي: «التفِت إليّ وارحمني، لأني وَحْدٌ ومسكين أنا. افرُج ضيقات قلبي» (آيتا 16، 17أ). يطلب المرنم أن يعينه الرب على إحساسه بالوحدة والضيق، وأن يخرجه من شدائده، بأن يتلفت إليه ولا يحجب وجهه عنه «لأنه لم يحتقر ولم يرذل مَسْكَنة المسكين، ولم يحجب وجهه عنه، بل عند صراخه إليه استمع» (مز 22: 24). ما أكثر ما نشعر بالوحدة والمسكنة، ونقول مع داود: «أبي وأمي قد تركاني، والرب يضمُّني» (مز 27: 10).

(ب) الخطية تُسبِّب الضيق الخارجي: «من شدائدي أَخرِجني. انظُر إلى ذُلّي وتعبي واغفر جميع خطاياي» (آيتا 17ب، 18). يذكر المرنم ستة أنواع من ضيقات المؤمنين: الوحدة، والمسكنة، والاضطهاد، والشدائد، والذل، والتعب. ولا يتذمَّر المرنم منها، ولا يحدد للرب شيئاً يفعله بصددها، لكنه يكتفي بالقول: «انظر» كما قالت الأختان مريم ومرثا للمسيح: «الذي تحبه مريض» (يو 11: 3) دون أن تحددا له ما يفعله، ثقة منهما في محبته وحكمته.

ويرى المرنم أن كل ضيق خارجي أصابه من أعدائه هو نتيجة لخطاياه، ويطلب مغفرة كل خطية ارتكبها، لأنه يعلم أن الخطية تزعج النفس وتضايقها. لا يستطيع العالم أن يضايقنا ما دمنا في الرب، لكن الخطية هي التي تضايقنا لأنها تحجب وجهه عنا. ولا يقدر الأعداء أن يذلونا، لكن الإذلال يأتي دائماً من الداخل، عندما يتعالى الإنسان متشامخاً، فيُغضب الله، ويجبر الناس أن ينفضّوا من حوله لأنهم لا يحبون من يهتم بنفسه فقط.

2 - الأعداء يسبّبون الضيق: «انظر إلى أعدائي لأنهم كثروا، وبُغضاً ظلماً أبغضوني» (آية 19). كانت خطيته سبب بعض ما أصابه من ضيق داخلي وخارجي، فطلب الغفران والمعونة. ولكن بعض الأعداء ناصبوه العداء بسبب شرِّ قلوبهم، وليس بسبب خطإٍ ارتكبه في حقّهم، فاجتمعوا حوله واتّحدوا ضده، وأبغضوه ظلماً، فصرخ إلى الرب الذي يعلّمنا أنه «طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة، من أجلي، كاذبين. افرحوا وتهلّلوا لأن أجركم عظيم في السماوات» (مت 5: 11، 12).

3 - الضيق يبعث على انتظار الرب: «احفظ نفسي وأَنقذني. لا أُخزَى لأني عليك توكلت. يحفظني الكمال والاستقامة لأني انتظرتك» (آيتا 20، 21). وهي الطلبة التي علّمها المسيح لنا «لا تُدخلنا في تجربة». كان المرنم متضايقاً عاجزاً عن مساعدة نفسه، وهو يدرك أنه هو نفسه السبب في جزءٍ من الضيق الذي حلَّ به، وأن الأعداء هم سبب الجزء الآخر، فطلب الغفران والعون السماوي، ثم أعلن انتظاره للرب الذي وضع ثقته فيه واتكل عليه، ليغيثه ويعينه وينقذه، عالماً أن كماله واستقامته هما ضمانه في النجاة من الضيق، لأنه يتعامل مع الله الصالح والمستقيم.

4 - الفداء الإلهي هو المخرج الكامل من الضيق: «يا الله افدِ إسرائيل من كل ضيقاته» (آية 22). هذه طلبة شاملة، رفع المرنم فيها كل الشعب المجرَّب والمصارع والغالب بنعمة الرب. والفداء هو التحرير بالشراء، فالرب يدفع الفدية، والمسيح هو المخلّص الذي يفتدينا من كل إثم، ويطهّرنا ويجعلنا شعبه الخاص (تي 2: 13، 14) «لأن عند الرب الرحمة، وعنده فدىً كثير، وهو يفدي إسرائيل من كل آثامه» (مز 130: 7، 8).

دعونا نطلب من الرب أن يجعلنا شعبه الخاص، فيعرّفنا، ويعلّمنا ويدرّبنا، ويعود يعلّمنا عندما نعاود الخطأ، فإنه «يغفر جميع خطاياي» ويفدي خاصته من كل ضيقاتهم.